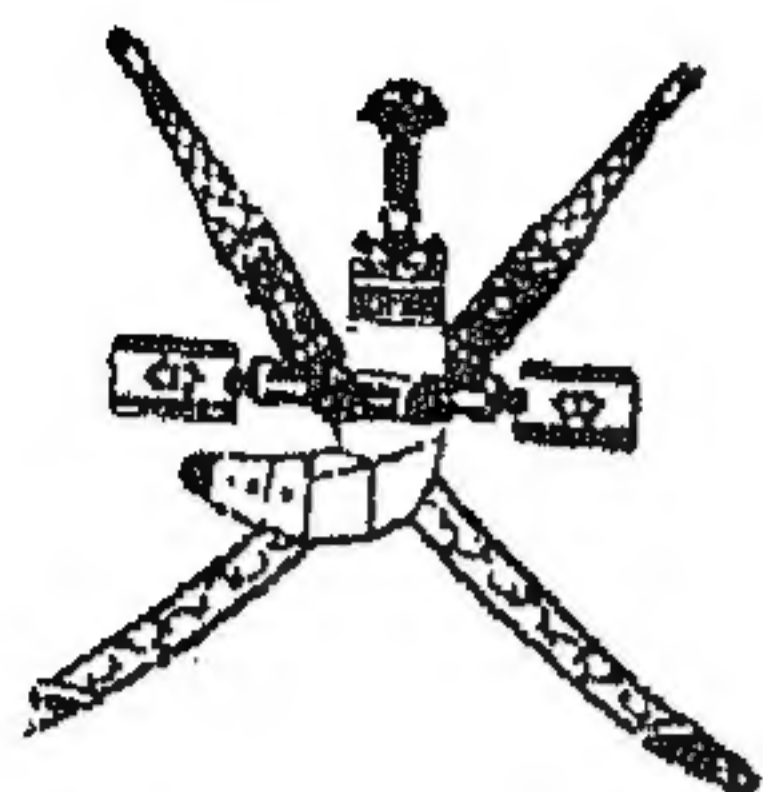


سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

رَحَلْتُ إِلَى عُكْمَانْ

تأليف
ونيدل فليبس

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

رَحَلَتُ إِلَى عَمَّانَ

تأليف
ويندل فيليبس

ترجمة
محمد أمين عبدالله

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

« أن الآراء والمعلومات الواردة في هذا الكتاب هي على مسئولية المؤلف ولا تعبر بحال من الأحوال عن آراء حكومة سلطنة عمان »

الفصل الأول

الجبل الأخضر ومسقط

« الطيران الى عمان — الجبل الأخضر — في مسقط مع

جلالة السلطان — جلالة السلطان وعائلته الكريمة »

« ان وجود مثل هذه الدولة العربية كدولة
عظيمة مكتملة البنيان فوق هذه الصحراء حيث
تصعب المعيشة على الانسان ، هو أوضح مثال
للذكاء والفطنة ، فهذه الصحراء النادرة الماء ،
بأرضها الفقيرة الملحة المتميزة بلا ثمر • لهى
أكثر من صحراء » •

« سير جون مانديفيل »

مازال بامكاننا رؤية القطاع الجنوبي المتراعى الأطراف ، والشمس
أكثر حمرة ، ثم هاهى ذى وقد تحولت الى اللون الذهبى ، ثم طلّت من
ياقوت البحر الأزرق •

حدث ذلك في يوم من أيام رحلتنا ، عندما بدأنا السير على ذلك الممر
الخشّن ، يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٥٨ ، وفي وقتها كانت طائرتنا
(الداكوتا) تقلع من الممر الأرضي للجزء الداخلى لشجيرات جوز الهند
في صلالة ، وهى تمثل ثلثى الطريق الذى قطعناه في رحلتنا من عدن لمسقط •

وبعد عبور جبال القراء طرنا في الشمال الشرقى ، لمدة ثلاث الساعات
التالية ، فوق الرمال الصفراء والحمراء الخالية ، والعديمة الملامح ، ثم
فجأة تحول اللون الأحمر الى أزرق داكن ، حين مررنا فوق سهل رملى

ملء بالحصى ، ومع ظهور الجبال العالية البعيدة ظهر قطيع من الماشية ، وعلى اليمين بدت الواحات الجميلة الخضراء ، ذات المنازل الرمادية الصغيرة ، التى تجمعت كعناقيد حول الأحواض المائية المتلائة ، التى كانت تسطح مثل المرايا •

وخلف هذا كان هناك على اليمين وعلى بعد ١٩٠٠ قدم بلدة صغيرة تجاه الجبال بجوار الوادى الفسيح ، هى نزوى ، وقد خرجت هذه البلدة بمعالمها الى الأضواء منذ شهور قليلة ، وذلك أثناء التمرد السقيم الذى حدث ضد النظام الشرعى القائم •

والى اليمين من نافذة الطائرة كان هناك جدار هائل من الحجارة ، يكاد يزاحم السماء بارتفاعه الشاهق ، حتى لقد أحسست وكأنه لمس جناح الطائرة ، وعلى الجانب الآخر كانت هناك قمة شاهقة للغاية •

وبينما كنا نستكشف الجبل الأخضر العظيم •• رأينا مساحة هائلة من الأرض المقفرة العارية ، ذات الارتفاع الهائل (١٠٠٠٠ قدم) ، وهى بمثابة العمود الفقرى والمركزى لعمان •• والجبل الأخضر العظيم •• أو الجبل ذو الرداء الأخضر •• بالفعل ، وبلا أية مبالغة ، ليس جبلا عاديا ، لأن الصخر الذى يتكون منه هذا الجبل له لون أخضر قاتم ، كالبرونز العتيق ، والجبل كتلة صخرية ذات عشب وأشواك ، تمتد فى أماكن متسعة متفرقة ، وعلى رأسه ترقد قمة ضخمة غير مستوية ، واضحة أمام العين •

ولقد كان الجانب المواجه لنا بصفة خاصة عمودى الشكل ، ويبدو الجناح الطرفى وكأنه سكن حادة •• أما الجانب الآخر فقد كان جدبا وقاحلا وقد جمعنا بعض الصور التى التقطناها ، وهى بمثابة « بانوراما » رائعة خيالية ، من الصخور والقمم ، قطعها عصور جيولوجية منذ حقبة بعيدة ، وهناك مساحات وعرة هائلة ملبئة بالمقابر ، وتوجد شقوق عميقة غريبة الشكل ، تشبه الجيوب الضيقة العميقة •

وهناك الأودية الضيقة المليئة بالشلالات والمجاري ، وهناك الجدران المغطاه بالنباتات ، وهي كالعذراء التي يتدلى شعرها على الظهر ، وتروى هذه النباتات عن طريق أمطار الشتاء الغزيرة ، التي تختزن معظم السنة ، وهناك نوع من الزراعة الناجحة في النصف الأسفل من الجبل ، حيث ينمو الثوم ، بينما ينمو الزيتون وشجر الأرز في النصف الأعلى •

وهناك أساليب محكمة للرى الصناعى ، تقوم برى مساحات الأرض في الأحراش الموجودة ، في الأودية الصخرية الضيقة ، وهناك خزانات كبيرة لرى حدائق أشجار الفاكهة ، مثل المشمش ، والخوخ ، والرمان والتوت ، والموز ، والجوز ، والتين ، كما بين ب • أوتشرايلوى ١٨٣٦ ، ذلك العالم الفرنسى ، الذى لم ييأس من قطع هذه المنطقة على الأقدام ، وقد جمع حوالى مائتين وخمسة وعشرين بصيلة نباتية ، ثم عاد بعد ذلك الى مسقط عن طريق وادى سمایل •• وقد جاء المستكشفون الانجليز الأوائل أمثال ج • رديلستد و ه • ه وايت لوك قبل ذلك بعام الى قلب عمان ، وسجلوا دهشتهم واعجابهم ، وتساءلوا هل هذه هى المدينة العربية التى كنا نحسبها مجرد صحراء •

وتمتد مزارع الحبوب وقصب السكر الخضراء ، وتتدفق أمامنا جداول مائية ، تعبر عن الوجه السعيد للتنوع للفلاحين ، الأمر الذى يساعد على استكمال الصورة الجميلة للمجتمع على الجبل الأخضر ، فالسكان مرتبطون بالأرض الى حد كبير ، وهناك الولاء والطاعة للعصبة وللأسرة •• وتوجد اثنتا عشرة مجموعة قوية لقبيلة بنى ريام التى تسكن على سطح الجبل ، ولكل مجموعة شيخها ، وهناك أربع قرى رئيسية ، ومجموعتان من الرحالة يتجولون على الجبل بوجوههم القوية ، على حمير الجبل ، ودواب رائعة قادرة على حمل أية أثقال ، وهم يتفاخرون بحياتهم هذه •

ولقد عرف هؤلاء القوم مسالك الجبل والطريق منذ ساعة ميلادهم ،

ومن المعتقد أن العدد الاجمالي لسكان الجبل يصل الى حوالى ١٦٠٠ نسمة ، والقرى مبنية بنىء قويا من الطين والحجر • والأسقف شديدة الصلابة مصنوعة من الصلصال الأحمر ، لتحميهم من متاعب الشتاء ، والأبواب مصنوعة من الجوز وخشب السندال ، تتميز برائحتها الجميلة ، ويتم تزيين أبواب الطرقات منها •

وبينما كنا فى الطائرة كانت الأودية تتسم بشريط صغير أخضر ، يخرج فى أشكال مختلفة مع كل منحنى للمجرى الكبير بمساكن صغيرة ، تنتشر هنا وهناك ، وقد طلبت من قائد الطائرة أن يدور مرة أخرى ، لكى يغطى الجبل الأخضر مرة ثانية ، حتى يتسنى أن نكمل تصوير الفيلم •

وقد كان بيل تورى رفيقى ، الذى يقوم بالتصوير •• وقد صحبنى كثيرا فى رحلاتى الاستكشافية العربية والافريقية • وقد قام قبل ذلك بتصوير الهجوم اليابانى على بيرل هاربر ، ومع أن الجو كان باردا فقد كان تورى مبتلا بعرقه نتيجة صعوبة حمل الكاميرا (م م ١٦) وقد كان يتدلى من الكابينة فى جهد شديد لضبط الزوايا •

وقد قام الطيار بدورة كبيرة ثم انخفض بالطائرة مرة ثانية ، الى قلب الجبل ، متأرجحا من مكان الى آخر ، هابطا الى الكهوف والمنخفضات السحيقة ، التى رآها الفلكيون من قبل على الطبيعة •

حقا لقد كانت تجربة ممتعة ، أن نشاهد ظلا لطائرتنا على وجه الصخور القوية ، وهى تباعد مرة للأمام ، ثم تتسلق مرة أخرى فوق بعض القمم أمامنا مباشرة ، وقد أحدث دورانها صورا تشبه لعب الضوء والظل ، وتغير الأخضر الى الرمادى ، والأصفر الذهبى ، والأودية العميقة المظلة ، وأشعة الشمس الناعمة على الأطراف المرتفعة •

لقد خلق كل هذا نوعا من الأحاسيس الجميلة ، يصعب على

الانسان نسيانها ، فالطيران فوق الجبل الأخضر في عمان كان بحق أعظم تجربة جبالية •

وبعد التزود بالوقود من الغرب •• وجدنا أن الجبل الأخضر العظيم ينحدر فجائيا الى الشرق • كما لاحظ الكولونيل س • ب ميل من قبل عام ١٨٧٦ ، وان الانحدار المفاجيء للأطراف الشمالية والجنوبية يجعل الوصول الى هذه الكتلة الصخرية صعبا ، اذا استخدمنا السهول ، الا عن طريق الأودية الضيقة •

وبالعودة الى القرن العاشر نجد أن الفرس قد استطاعوا غزو هذه الأطراف ، رغم صعوبة الوصول اليها ، ورغم أن العمانيين قاتلوا بشجاعة ، وقد كانوا يلقون الحجارة الضخمة خلال تراجعهم ، خطوة خطوة ، وهم يدافعون عن قلعتهم الأخيرة •

وللجبل الأخضر مظاهر عديدة يمكن أن تراها ، وأنت في البحر على بعد مئات الأميال •

وأثناء طيراننا لأقصى الشرق كنا نرى منازل ومساحات من الأرض قليلة الزراعة ، وعلى البعد ظهرت أشجار النخيل الممتدة على الشاطئ ، ثم ذهب بنا قائد الطائرة لأسفل ، حيث مسقط ومطرح بأشجارها الخضراء والكتل السوداء الخاصة بالساحل الصخري ، والآثار البرتغالية القديمة ، والمباني البيضاء اللامعة •

وفي طريقنا من مطرح كان أول شيء عرفته ، هو سعادتي الشديدة بمعانقة الرئيس الصومالي جاما •• والذي قد صاح بالعربية « الشكر لله » وقد حياه البروفيسور الكسندر (الكسندر م هانيمان) ، وقد تكرم السلطان بارسال الأستاذ محمد أمين لكي يقوم بإجراء مراسم الاستقبال ، وبصحبته مستشار السلطان للشئون الدفاعية •

وقد قادنا مرشد السلطان بأقصى سرعة ممكنة تاركين وراءنا القرى الصغيرة والجمال والأصدقاء ، وذلك عبر الطريق من المطار بحافة شاطئ البحر بمسافة كبيرة ، ثم الى الداخل حيث مكتب الجمارك ، وبعد ثلاثة أميال خفقت قلوبنا لمنظر مسقط الرائع ، فهي بقعة على ساحة مسرح قديم على ارتفاع (٤٠ — ٩٠ قدما) ثم الميناء الذى نحت فى الصخر •

وقد قال اللورد كورزون : ان هذا الميناء هو أروع صورة مجسدة فى الشرق ، وانه بالتأكيد هو أحسن وأعمق ميناء فى كل الجزيرة العربية •

وقد ذكر ويلستد ذات مرة : انه لا يوجد فى العالم كله ما يماثل هذا المنظر الجميل والرومانسى لمسقط ، وعلى الجانبين كانت هناك صخور شديدة الصلابة على ارتفاع ٣٥٠ قدم ، تنتشر فى كل اتجاه ، وهناك المدينة البيضاء المطلّة على الشرق والغرب بصخورها العمودية ، وعلى أعلى نقطة لهذه القمم العمودية توجد الأبراج ، بنوافذها ذات الأشكال المختلفة ، وقد تركها أبناء الامبراطورية القوية الفارسية والبرتغالية ، وتاركين أيضا أرضا بورا وصخورا سوداء • ويخيم الصمت والسكون القاتل على هذه الجبال ، بصخورها العارية الخالية من النبات ، والتي تحرم مسقط من كل نسيم بارد أثناء الفصل الحار ، وتمص قسوة الحرارة أثناء اليوم ، لتخفّضها بعد غروب الشمس • ولا توجد ظلال لهذه الجبال الشاسعة ، ومن حين لآخر تهب على مسقط فى ليالى الصيف رياح غربية ، ترحف من الجبال المرتفعة مما يرفع درجات الحرارة الى حد لا يطاق •

ومع ذلك فبمجرد دخولنا المدينة فى منتصف الشتاء كان الجو باردا الى حد ما ، وكنا محظوظين ، حيث ان مناخ المدينة كان أحسن حالا من أول مايو ١٨١٠ •

وقد كان مناخ مسقط هو الشيء الوحيد الذى يتميز بانطباع خاص لدى المسافرين فى الماضى •

فقد وصل ابن بطوطة مسقط القديمة سنة ١٣٤٧ م وقال عنها
« انها بلدة صغيرة بها أسماك كثيرة » * وفي سنة ١٥٠٧ م قال عنها
الفونسوى البكورك : انها مدينة كبيرة آهلة بالسكان ، وانها المركز
الرئيسى لهرمز ، بينما اكتشف الرحالة الايطالى بىرودى لافال عام
١٦٢٥ م أن مسقط بها كنيسةستان وبعض الأقليات الأجنبية *.

وسجل « جون ستروز » أن هذه المدينة على كبرها وحجم سكانها
فهى قليلة السكان بالنسبة للماضى ، وخاصة عندما استولى ملك الفرس
عام ١٦٢٢ على هرمز ، وعندما كانت مركزا للبرتغاليين والعرب ، ففي
القرن الثامن عشر كان الميناء مزدحما بالصواري الكبيرة ، وكان مليئا
بالتجار والقوارب الشراعية من البحر الأحمر وكراتشى ، وكانت القهوة
سلعة هامة فى البصرة *.

وفى عام ١٧٢١ أبحر « كابتن الكسندر هاميلتون » الى ميناء مسقط
بمركب ، بحمولة تقدر بمائتى طن واثنى عشر مدفعا ، وذكر بعد ذلك أن
مسقط قوية جدا بطبيعتها ، وغنية بفننها ، ولكن مبانيها متواضعة ، وأن
سكانها طيبون ، ييغضون التفاخر ، والتباهى ، ومازال المبنى الذى
بناه البرتغاليون يحمل بعض المعالم الحضارية ، وقد تحول الآن الى مقر
يقيم فيه السلطان بصفة عامة ، شهرا كل عام ، ويتخذ السلطان مقرا
للحكم بصفة عامة فى نزوى والرسناق ، اللتين تبعدان عن مسقط مسيرة
أربعة أو خمسة أيام برا ، حيث يدير من هناك شئون الدولة *.

ومن الأحداث الهامة التى شهدتها مسقط زيارة المستكشف الدانماركى
« كارستون نيهور » عام ١٧٦٥ ، وهو أول عالم حقيقى يصف الجزيرة
العربية ، وقد كتب واحدا من أعظم وأهم البحوث الوصفية عن عمان ،
وفى هذه الحقبة ، أثناء حكم السيد أحمد بن سعيد لم يكن هناك مستوطنون
أوروبيون فى المدينة ، وكانت حامية مسقط مسلحة بالسيوف والخناجر
والبنادق ، وكان مرتب كل جندى أربع روبيات كل شهر *.

وبعد عشر سنوات مكث « الكابتن جورج » بسفينته في ميناء مسقط لمدة شهرين ، وكانت سفينته « سى هورس » مجهزة بعشرين مدفعا ، الى جانب مساعد القبطان « هوراثيون نيلسون » الذى أصبح فيما بعد بطلا لوادى النيل ، والطرف الأغر •

وفي الحروب النابليونية حاصر الأسطول الانجليزى الأسطول الفرنسى في هذه الميناء ، بينما تسلك الأسطول اليابانى أثناء الحرب العالمية الثانية الى الداخل ، وضرب بالطوربيد سفينة تجارية نرويجية •

وليست هناك مصادر طبيعية في مسقط • والسكون يحتضن القمم العالية للجبال ، ذات الصخور الصلبة ، رغم أن هناك ممرين الى الجنوب والغرب يقدمان مدخلا ملائما الدخول ، خلال هذه التحصينات الضيقة • وتعتبر مسقط وبلا جدال هى النافذة الرئيسية التى تطل منها عمان على العالم ، وهذه النافذة مفتحة للخارج ، وليس للداخل ، وليس هناك منفذ لاختراق هذه الأسوار الطبيعية •

وزيادة السكان تتجه الى مطرح ناحية الغرب ، أو سداب في الجنوب ومنظر قرية الصيد في سداب يدهشنا بحدائقها الغناء ، والقمم المختلفة التى تحيط بها ، وتطل برءوسها على البحر ، وهنا يوجد صهريجان في الوادى الكبير يمدان مسقط بالماء ، وليس هناك شارع رئيسى ، اللهم الا بعض الأزقة الضيقة المؤدية الى نوع من التجمعات المركزية ، وفي الأماكن الجنوبية الغربية لهذا الجزء من المدينة يوجد سور كبير ذو خندق ، والبوابة الوحيدة المؤدية الى المدينة المحصنة حجمها كبير ، بدرجة كافية لمرور السيارات ، وهناك السور الغربى ، المعروف بالبوابة الكبيرة ، والذى أعيد ترميمه منذ سنوات قليلة ، بناء على طلب السلطان ، وهناك أماكن للجلوس في ممر البوابة ، حيث تدور فيها الأحاديث التى لا تنقطع ، وحكايات الحراس والمواطنين ، وتغلق الأبواب كل ليلة بعد ثلاث ساعات من الغروب ، وتطلق ثلاث طلقات من المدفع لفتح الأبواب للسيارات

الخاصة بالسلطان ، أو المسؤولين ، وبعد اغلاق البوابة الرئيسية يمكن للمشاة دخول المدينة ، خلال باب صغير ، في احدى البوابات الكبيرة ، ولكن بتصريح ، ولابد من وجود كشافات مع المسارة عند الوصول الى مسقط التي تضم حوالى ستة آلاف نسمة •

وكنا نرى السيدات محجبات ، يعلقن حلقات في أنوفهن للتحلى بها وللزينة ، ويقول ج • ويلستد : انه لاحظ طول النساء ، وأنه شعر باكتمال في شخصياتهن ، وانهن لا يفضلن البدانة ، وجاذبيتهن أكثر من كل نساء الجزيرة العربية •

ويذكر ج « س باكنجهام » عند زيارته لمسقط في سبتمبر سنة ١٨١٦ أنه بغض النظر عن عدد السكان ، الذى يقدر بحوالى عشرة آلاف فانه ليس هناك مسيحيون في مسقط • وقال أيضا : انه وجد شعب مسقط أنظف وأكثر اعتناء في اللبس ، وأكثر كياسة من كل العرب الذين رأهم في حياته ، وأنه قد أعجبه مظهرهم ، وشعر فيهم بالثقة والعزيمة القوية والاحترام •

ويقال ان لمسقط قدم في الجزيرة العربية ، وقدم في الهند ، حيث كان الهنود يسيطرون على السوق ، ومعظمهم من بومباي ، وبعد مجيء فريق التجار الهنود كانت العملة الهندية هي وسيلة التبادل ، والعمال والحمالون هناك من أصل سنغالي ، أو إيراني ، بينما يكون العرب ، الذين يمثلون نصف السكان الطبقة الارستقراطية في المدينة ، وهم يرتدون ملابس على النمط الفارسي القديم •

وأصحاب الديانات غير المسلمين لهم حريتهم في عبادتهم ، بلا تدخل ، وكان للارتباط مع زنجبار وشرقى افريقية تأثير كبير على اللهجة المحلية ، وربما يتحدث الشخص مثل رحالة الصحراء ، ويستخدم كلمات معينة وعبارات وجمل مركبة ، تقترب من اللغة القديمة ، بينما يستخدم الآخر اصطلاحات مبسطة ، وينطق لهجات قريية من لهجات اللغة الفارسية

وأبناء الخليج ، وبصفة عامة فان لغتهم مليئة باللكنة الانجليزية ،
والهندوستانية ولها ميزة تنتمى الى مسقط وحدها •

والفقراء فى مسقط ليسوا سعداء بفقرتهم ، وهم يرفضون أن
يتحملوا الفاقة ثانية ، ويجرى فى دمههم الأساس العقلى الدينى الراسخ
الجميل للإسلام ، وهو أن الحياة الدنيا قصيرة ، ويجب أن ينظر الإنسان
الى ثواب الآخرة ، وفقرتهم ليس سببه تخاذلهم أو ضعفهم ، ولكن فرص
العمل قليلة ، لذا فليس من الدهشة أن يحاول الشباب المسقطى ذو الطموح
الرحيل ، رغم أن هذه الرغبة لم توجد الا فى السنوات القليلة الماضية ،
وتؤثر الثقافة الإسلامية ، وخبرة الحياة عليهم كثيرا ، بحيث لا يمكن
للطفل أن ينساها ، وفكرة الملكية الخاصة ينظر اليها باهتمام وأفضلية
فى مسقط •

وكل المنازل تبنى عادة من الطين أو الحجر والخرسانة ، وربما يمتلكها
السكان المحليون أو الأجانب ، وتؤول الأرض ، التى لا تثبت لها ملكية
للدولة ، فتكون تحت اشراف الحكومة ، وكل المباني خاضعة لقانون
الاسكان فى مسقط ومطرح •

ومن الضرورى الآن أن نتوقف للحظة لننتحدث عن سبب وهدف
وحكاية وجودى فى مسقط •

ففى عام ١٩٥١ نظمت رحلة استكشاف عربية ، وهى رحلتى الثالثة
للكشف عن حفريات تمثال القمر فى المملكة المحظورة « اليمن » ، وتمثال
الإله « ايليوكا » فى العاصمة القديمة لمملكة سبأ •

وفى ١٢ فبراير ١٩٥٢ أجبرتتنا السلطات الرسمية فى اليمن المضيفة على
ترك كل معدائنا ، والهرب من أجل انقاذ أرواحنا ، وقمت أنا بقيادة
المجموعة فى الكثبان الرملية الناعمة ، وأصبت بخيبة أمل كبيرة ، ليس فقط

من أجل الحفريات التي لم أجدها ، ولكن من أجل المعدات أيضا ،
والوحدات الطبية ، والآلات التصوير •

ومن قبيل الصدفة — وليس الترتيب — أن وصلنا إلى عمان ، ومن
حسن حظي أنني تقابلت مع جلالة السلطان المثقف عام ١٩٤٩ عندما عبرت
جنوب إفريقيا ، واستقبلني في مسقط ، ودعاني أن أقوم برحلتى
الاستكشافية إلى عمان ، للحشف والتنقيب ، وشرحت له ما حدث في
اليمن ، وخسائرنا هناك ، وأنا لن نستطيع عمل الكثير ، وإذا وافق على
مدنا بالمعونة فإننا سوف ننجز عملا كبيرا • وقد قدر جلالته ظروفنا
ومتاعبنا في اليمن ، ورحب بنا ، وتعهد بإعطائنا كل ما يلزمنا في
برنامجنا •

وبعد بضعة شهور أدركنا عطف وكرم السلطان ، فقد أمدنا بالآلاف
من الدولارات التي أخذناها ، وأعطاه لنا السلطان ، وقد اعتبرها مساهمة
في البحث ، وكان هذا الكرم أثمن بكثير من الاكتشاف الفعلي للمدينة
المفقودة •

ومن هنا جاءت رحلتى الرابعة ، والتي أتناولها هنا •

وتقدمنا « البروفيسور الكسندر هانيمان » من جامعة « أندروز »
والذى كان هو الملاح المحنك في رحلاتنا الأولى ، تقدمنا ، وشيد مركزنا
في منزل مبنى من الحجر ، والطين والرخام ، أعطوه لنا — بكل عطف —
من تاجر هندي • تقدمنا البروفيسور كقائد لنا ، وكأستاذ في اللغات
القديمة في أقدم جامعة في « أسكتلندا » ، فهو متخصص في العبرية ،
والعربية ، والأرمنية ، والفينيقية ، وكل ما كان يهمنا هنا هو معرفته وفهمه
للنقوش في شبه الجزيرة العربية •

وكانت المجموعة كلها في هذا الموقع الجديد من المحاربين القدماء
باستثناء « ريا كلفلاندو » التي تبلغ من العمر ٢٨ عاما ، وكانت تدرس

للحصول على الدبلوم ، تحت اشراف عالم الطبيعة « وليم • ف • البريت » في جامعة « جون هوبكنز » ، وكانت « كلفلاند » قد بدأت في دراسة علم الآثار ، تحت اشراف « البروفيسور نادلين كاكسياتين » أثناء عملها في « جاركوا » وكنا لانزال ننتظر « الدكتور لويس روس » في صحار ، وقد كان في طريقه من البحرين •

وكان السلطان يؤيد وبحماس رحلتنا ، وقد ساهم جلالته ، ليس فقط بالنقود التي كنا نحتاج اليها ، ولكن الأكثر أهمية هو الشيخ شاكرا ابن حماد ، الذي اصطحبني في زيارتي لتعرف على صحار ، منذ ثلاثة أشهر ، كرئيس للارشاد •• وقد اختيرت صحار كهدف لنا ، لما ذكره الجغرافيون العرب القدماء عنها ، من أوصاف براقعة للآثار الكبيرة بها ، من بقايا المعارك أو الاحتلال • وقد رافقني في رحلتى الى مسقط أمى وأختى مادلين •

وقد علمت أن جلالة السلطان ولد عام ١٩١٠ قبل سنوات ثلاث من تنصيب والده ، تيمور بن فيصل ، لستون السلطنة ، وبتنازل والده له عام ١٩٣٢ أصبح السلطان سعيد هو سلطان عمان • وجلالته يجيد التحدث والقراءة والكتابة بالانجليزية باتقان •• وهو ذو مزاج معتدل بهي الطلعة والمنظر ، ذو طبيعة أصيلة وأدب جم ، كريم مع زواره وضيوفه ، وهو مسلم ، تقى ، مخلص ، وغير متعصب ، ومع ذلك فهو عربى مكتمل •

وكان للسلطان تأثير كبير على سياسة بريطانيا العظمى وأمريكا ، وهو يستمع دائما الى الاذاعة البريطانية ، ويطالع المجلات الأمريكية ، وهو رجل ذو تقاليد محافظة ، لا يفتنى السيارات الفاخرة أو الطائرات أو اليخوت ، ولكنه يتمتع بالحياة البسيطة ، ويفضل اجتياز الصحراء بعربة جيب ، ويخلو أحيانا الى نفسه ، وهو رياضى حقيقى ، ورام ممتاز ، ومصور بارع ، ذو ذوق رفيع ، وله زوجتان ، أنجبت الثانية

ثلاثة أطفال ، والولد الوحيد حسن المظهر ، وذكى للغاية ، وهو السلطان قابوس ، وقد تخرج من كلية « سانت هيرست » الملكية في سبتمبر ١٩٦٢ *

وعندهما كان قابوس غلاما اعتاد والده السلطان أن يغرس فيه مبادئ وأهمها ، أنه مثل سائر العمانيين ، وأنه يجب أن يعمل ، وأن يعنى بتأهيل نفسه على المبادئ القويمة حتى يكون له مركزه الخاص *

وقام السلطان بالترحيب بنا بحفاوة ، ثم اطلعنا على حوض فضى حفرت عليه نقوش جميلة ، كان قد أرسل هدية من روزفلت عام ١٩٠٧ لجده ، السيد فيصل بن تركى ، الذى كان على العرش وقتها ، وكان الحوض مذيلا « من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الى عظمة سلطان عمان » ثم قادنا السلطان الى مقصورته الخاصة لرؤية الميناء ، الذى تحيط به حصون قلعتى الجلالى والميرانى * وقد شيد قصر السلطان على قمة صخرية ترتفع حوالى ١٥٠٠ قدم عن سطح الماء ، وذكر جلالته ، أن أحد القواد البرتغاليين الأوائل ، ويدعى « موردا » قد شيده ، وبمرور الوقت فان الحصن الغربى والأكثر ارتفاعا بقليل ، وأكثر تعقيدا فى التصميم قد تم تعديله بمهارة كبيرة بعد استخدام المساحة الفسيحة المتاحة بجواره ، وهو يسمى الميرانى ، فى حين أن القائد الفارسى ، المدعو جلال ، قد شيد هو الآخر حصنا ، ولهذا سسمى حصن الجلالى ، وهو يهتل من الشرق قمة عالية من الصخر ، ويقف شامخا فخورا *

وقلعة الجلالى يمتد تاريخها من سنة ١٥٨٩ ، وهى أصغر حجما ، ومع أنها أكثر مساحة من الأخرى الا أن الفتحات التى كانت تطل منها المدافع مازالت موجودة بها * والقلعة ذات برج دائرى فى كل طرف ، هو الآن يستخدم كسجن ، وبه خمسة وثمانون سجينا ، وهم من المنشقين ومثبرى المتاعب فى الداخل ، ورغم أنه فى اليمين يتم قطع رعوس

مثل هؤلاء بسهولة شديدة ، بعد صدور قرار ملكي بذلك ، الا أن السلطان يعاملهم معاملة طيبة ، ويرسل طبيبه الخاص اليهم ، مرتين أسبوعيا ، وعندما يجد الطبيب أن حالة أحدهم تستحق الانتقال يرسله الى المستشفى .

والمدخل الوحيد لقلعة الجلالى هو شاطئ الميناء بدرجاته الصخرية المنحوتة فى الصخر الصلب .

وهما يروى عن هذا الحصن ، أنه ذات مرة هرب سجين منه بإدلاء حبل من البطاطين ، ونزل الى المحيط ، ولكنه لم يجد مكانا ينزل اليه فانتحر .

وفى ١٤ فبراير سنة ١٩٦٣ . حدث أول هروب جماعى يعرف فى تاريخ السلطنة من سجن الجلالى ، وقد كان العدد المعتاد للمساجين لا يتعدى ١٠ — ١٥ فى كل حجرة . ولكن كان هناك أربعة وأربعون سجيناً ما بين قتلة الى تجار أسلحة ، كلهم فى حجرة واحدة ، لوجود اصلاحات فى السجن فى ذلك الوقت ، ولم تكن أيدي المساجين مقيدة بل أقدامهم فقط ، فقام بعضهم بفتح السلاسل الملتفة حول أقدامهم ، وبدأ التخطيط ببراعة للهروب ، ولم تكن هناك أقفال مفتوحة ، وقد فك المساجين عددا من المدافع ، واستخدموها فى الحفر ، وأثناء النهار كانوا يغطون الفتحة التى اتسعت بدس الملابس القديمة فيها . ثم ربطوا بعضهم ببعض ، ونزلوا على الصخور وكانت حادة تحت أقدامهم العارية ، لذلك فقد امتلأت الأرض بدمائهم ، وتم القبض عليهم جميعا فى حوالى ٢٤ ساعة الا واحدا ، تم القبض عليه بعد ثلاثين يوما .

والقصة التالية للبرتغاليين القدامى لازالت تروىها البوابة الداخلية لقلعة الميرانى ، وقد أعطانى ، « البروفيسور روبرت سيرجنت » تفاصيل أكثر عن تلك القلعة ، والنقوش ، فقلعة الميرانى كما تسمى الآن كانت معروفة للبرتغاليين بقلعة (كابتن) وتم بناء الحصن فيها عام ١٥٥٢ ،

وكان تجسيدا للهدف الذى أبحر من أجله البرتغال ، وعندما هوجمت المدينة بقوات البرابرة سلب الأتراك الحصن ، وتركوه خاويا ، بعد أن أغار على بك سنة ١٥٨١ م ونهب مسقط ، وأدركت الحكومة فى لشبونة أن الاجراءات يجب أن تتخذ لتقوية الدفاع والأمن ، وذلك قبل عام ١٥٨٦ م عندما صمم نائب الملك على بنائه ، ويبدو أن « دوم ديوارت » هو الذى وضع الخطط ، ثم خضعت البرتغال لحكم أسبانيا « فيليب الثانى » ولاتزال النقوش تحمل اسمه ، ثم أعيد بناء الحصن •

وهناك خط لاتينى على النافذة الخارجية فى الجدار الجنوبى الغربى فى الكنيسة الدائرية الواقعة على قمة الميراني ، وعلى الحوش الأسفل للحائط الشرقى هناك كتابات برتغالية ، والجدران الرمادية للجلالى والميراني تطل على أحداث تاريخية امتدت أربعة قرون ، ولها منزلة عظيمة فى نفوس سكان مسقط ، وان الأسرة الحاكمة تعيش فى ظلاله ، بعد أن أصبحت مسقط هى العاصمة •

الفصل الثاني

الدين في عمان

الآثار الاسلامية - المساجد في عمان -

البعثات المسيحية - احترام المسيحيين

« ليس هناك خطأ أكبر من خطأ بناء حقائق عامة على أساس من المعارف الناقصة أو الضعيفة ، ومن لا يعيش مع العرب لا يمكنه أن يلم الالمام التام بأحوال وطباع ملايين المسلمين في آسيا وأفريقيا ، ولا يمكنه أن يقول شيئاً صحيحاً ، ومؤكداً عن المجتمعات المتفرقة هنا وهناك ، فلا بد من التعايش كى يقوم أحدهم بالتعليق ، أو الحديث عن الاسلام والمسلمين » .

« ألفريد غليوم »

ان المجتمع العماني مجتمع مسلم ، يعتقد الفرد فيه أنه من الإثم أن يشير الى المستقبل دون أن يذكر عبارة « ان شاء الله » . وهذا دليل على أن الزمن لم يستطع التأثير على القيم الموجودة .

والمسلم فخور ، معتر بنفسه ، مستقل بذاته ، ذو نفس قانعة راضية ، هادئ الطبع لا تثيره حتى الأحداث ولو كانت من أعدائه ، وأهم ما يشغل الغالبية من الناس هو « ماذا تأكل ؟ ماذا تشرب ؟ ماذا ترتدي ؟ » . ولم يحصل معظم الناس على قسط وافر من التعليم ، ولكنهم يختلفون لحد كبير عن البدو ، في تمتعهم بقدرة فائقة على الملاحظة .

ويرى العربى أن المسيحية هى شكل من أشكال الديانات نقية فى الأصل ، أى فى روحها ، ثم تم تحريفها بعد ذلك ، بينما القرآن الذى لا يضاهى هو الكلمة الخالدة لله ، وبمقارنة عيسى بن مريم بالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك الاسم الذى ارتبط ارتباطا وثيقا بالله سبحانه وتعالى ، نجد أنه بينما أعطى القرآن سيدنا عيسى وضعاً مميزاً ، وذكر أنه كلمة الله ، وروح من الله ، وذكر أنه وليد العذراء مريم بلا خطيئة — نجد أن الانجيل لا يشير الى النبى محمد بشئ يعد أن حرفوه ، طمسوا لمعالم النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، الذى كانت رسالته الاسلام ، وكان القرآن هو المعجزة التى قامت عليها رسالته * والواقع أن الرسول الكريم قد تميز بأنه كان لديه كل المؤهلات المطلوبة لقيادة الدعوة الموحى بها اليه من ربه ، جل وعلا ، وقد أصبح كذلك بالفعل فى المدينة ، هذا الى جانب درايته الكافية بالتقاليد السائدة ، وقد قدم — كنبى — عنصراً جديداً للمجتمع القبلى وغيره من المجتمعات * ولم يقم بالغاء القانون التقليدى فقط ، ولكنه قدم أيضاً قانوناً إلهياً ، وهو القانون الأعلى والأعظم ، وخلق مجتمعا سياسياً أكبر ، وهو الأمة أو الدولة الاسلامية ، ومع أنه لم يخلع على نفسه أى ألقاب لابرار شخصيته ، فإن الملايين من أتباعه قد أعطوه ألقاباً كثيرة وعالية كتكريم له * وأثناء معركة مع اليهود أصيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى وجهه ، فجذبه أبو عبيدة : فلاحظ نزف الدم من وجهه الكريم ، فمص أبو عبيدة الدم ، وحينئذ قال الرسول ما معناه « من لمس دمي لن تمسه نار فى الآخرة أبدا » .

وقد كانت هناك محاولات للارتداد عن الدين ، وخاصة بعض محاولات التنصير ولكنها لم تنجح ، لأن الاسلام قسداً بنى على عقيدة راسخة وإيمان غير مزعزع ، ليكون الديانة الحقيقية الوحيدة ، ولذلك فإن الارتداد عنها هو حماقة واضحة .

وفى العالم الاسلامى الكبير بوجه عام ، يقبل النصرانى كمسيحى ،

والمسلمون بوجه عام يحترمون المسيحي المستقيم ، ولقد لاحظ المستكشف الهولندي « د. فان دير هولين » في السعودية ، أن الأمريكيين اذا ما أرادوا دخول البلاد من البداية كمسيحيين معترف بهم فليسوف يقابلون باحترام ، وسوف يسمح لهم بحرية العبادة على طريقتهم ، في أماكن جديدة لاقامتهم ، ولكن الأمريكيين قد تجاهلوا عاملا جوهريا في اتصالهم بالعرب ، وهو أن العرب المؤمنين لا يثقون في المسيحي الا اذا تبين لهم فقط أنه مؤمن بإله واحد .

ولقد قال الشيخ شخبوط حاكم أبي ظبي للكاتب الانجليزى « رودريك اوين » : لا بد أنك تفتقد كنيسةك اليوم . وانى آسف أنه لا توجد كنيسة لك في أبو ظبي ، فرد « أوين » . ولكن ألا ترضى عن وجود كنيسة هنا ؟ . فرد الشيخ « أرى بالطبع — فأنت تريد دينك كما تريد ديننا . ونحن مؤمنون ، ونعلم أنك ستكون أفضل كثيرا عندما تذهب للكنيسة » .

وكانت النتيجة الطيبة للبعثة الأمريكية في مسقط ومطرح هي التغلب على سوء الفهم والتحامل ، وهى التى حدثت أولا عن طريق الطب ، ثم التعليم ، وكان مما يشجع أفراد البعثة على انجاز مهمتهم — ذلك العطف والرغبة فى المساعدة ، ثم صداقتهم للناس هناك ، وكذلك الأعمال العظيمة التى كان يؤمن بها كل فرد فى البعثة ، وهى التى استقبلها المسلمون بالشكر والتقدير ، وبالتالي فيمكننا القول ، بأن الحب والقبول كان لفرد البعثة نفسه وليس للمسيحية ، ذلك لأن الاسلام — ذلك الدين الذى حل محل عبادة الأوثان وكان خاتم الرسالات — لا يمكن الارتداد عنه أبدا ، فقد انتشرت الدعوة الاسلامية فى أنحاء الأرض ، واعتنقها الملايين .

وعندما أطلت علينا الحقبة الحديثة انتشر الدين الاسلامى ، وأصبح كما نراه اليوم . وقد انقسم العالم الاسلامى بعد ذلك الى شيعة وسنية ، وفى اليمن يعارض الناس أهل السنة ويمارسون مذهبنا آخر

« الزيدية » على طريقة الشيعة ، أما في عمان فالغالبية يتبعون مذهبها يختلف عن الشيعة والسنية ، وهو المعروف بالاباضية ، وان الشخصية الاباضية هي الموضوع الذي تجدر مناقشته للوصول الى شخصية الدولة ، بصفة عامة ، ومساجد الاباضيين في عمان لا تزين من الداخل ، لأن ذلك يتعارض مع بساطة الاسلام .

وقد ظهرت المآذن التي تراها اليوم في تاريخ الفن المعماري أخيرا ، ولكنها لم تقبل في عمان ، واذا ما عدنا الى العصر الأولي للاسلام فسنجد أن المساجد لم يكن لها مآذن ، وقد كان مؤذنو رسول الله يؤذنون للصلاة من مدخل المسجد .

وتعتبر الصلاة حجر الزاوية في الاسلام ، اذ أنها عماد الدين ، فهي التي تعصم الانسان من الخطيئة ، ويقيم الاباضيون صلاة الجمعة في المدن الرئيسية « نزوى » و « صحار » أو حيث يختار جلاله السلطان ذلك .

والمسلم مطالب كما ذكر في القرآن الكريم بأن ينتظم في صلواته . .
الفجر — الظهر — العصر — المغرب — العشاء . . وأن يؤديها في أوقاتها .

وينظر الاباضيون الى الاسلام والايمان كشيء واحد غير منفصل ، ولا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر ، ومن يبتعد عن الاسلام يبتعد عن الايمان ولا يكون مؤمنا ، ولذلك فالايمن لا يكون كاملا ما لم تتبعه أعمال تنفذه ، ويؤمنون كذلك بأن الانسان سيحاسب على أعماله . ويقولون إن الله يختار عباده ، كما يرى الاباضيون أنه من الحرام أن تتزوج امرأة من رجل ارتكب الزنى معها ، ويقولون ان من يرتكب الخطيئة الكبرى ربما يؤمن بوحداية الله ، ولكن ايمانه ناقص ، لأنه لا ينفذ التعاليم ، ويؤكدون أن النية لابد وأن تسبق العمل ، وأن عمل الانسان من صنع الله ، وأن العالم الى فناء . ولا بد أن يكون الناس مطيعين لله ، ومن يعص الله فهو غير مؤمن ، وأن من يرتكب خطيئة كبرى ،

مثل القتل والزنى ، يفقد حياته ، وأنه على الانسان ، كى يعرف الخير والشر ، أن يرتبط بمصدر المعرفة وهو القرآن الكريم والسنة المحمدية ، وعليه أن يفعل ما أمر الله به ، ويجتنب ما نهى الله عنه من المعاصي •

وفى رأيهم أن الفرق بين الشرق والغرب ليس فرقا جغرافيا أو جنسيا ، وانما هو بين أولئك الذين تأثروا بتعاليم الانجيل ، وبين الذين لم يتأثروا به • كما أن الانجيل قد وجد في الشرق ومن أجل الشرقيين ، ولم تصدر الترجمة العربية لبعض أقسام الانجيل الا بعد وفاة الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه •

وليس من شك في أن تعاليم عيسى عليه السلام قد حظيت بتقدير كبير في الشريعة الاسلامية ، بيد أن بعضا من مضامين الانجيل كانت حتى ذلك الوقت باهتة ، وتتضمن تفاصيل مشوهة ومتقطعة في بعض أجزائها ، وان بعضها مشكوك في صحته ، بل انه ربما حدث فيها بعض الخلط فيما بين مريم العذراء أم المسيح وبين مريم أخت هارون •

ولقد رأى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن المسيح واحد من الرسل السابقين ، وأنه استنكر موقف اليهود من الديانة التي نادى بها عيسى عليه السلام وعدم تصديق اليهود لها •

ويروى عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ما معناه ، أنه قال لعمر بن الخطاب مرة ، من أساء الى مسيحي فكأنما أساء الىّ ، وهذه الحقيقة ظلت ماثلة في أذهان المسلمين نحو المسيحيين ، ولعل أبرز الأدلة على تسامح المسلمين هي تلك القصة الفريدة لشهداء المسيحية في قرطبة بأسبانيا الذين استماتوا لكي يستشهدوا ، وان لم ينجحوا في ذلك دائما •

ان محاولة المسيحيين للتصير في عمان خلال ألف العام الأولى للإسلام كانت نادرة وعقيمة ، وكان كاتالان ريموند هو أبرز الدعاة الى

المنصرانية الذين زاروا البلاد العربية في فترة القرون الوسطى ، ولم تجر بعده محاولات جديدة الا بعد مرور نحو خمسمائة عام *

وفي عام ١٨١١ م هبط « هنري مارتين » مسقط بشعاره المتعصب « دعوني أحترق من أجل الله » ثم جاء بعده رجل انجليزي متخصص هو مارجور جنرال هيج من الجيش الانجليزي ، وقد تجول على ساحل الجزيرة العربية عام ١٨٨٦ م ووصل الى داخل اليمن ، وقد كتب عن عمان ، انها تنفصل عن بقية الجزيرة العربية ، حيث الصحراء الرملية الشاسعة ، وكذلك في مجال اتصالها بالعالم ، وذكر أن عمان جزيرة تتصل بالبحر من جانب واحد ، ثم بالصحراء من بقية الجوانب *

وقال هيج ان مناخ مسقط هو المسئول عن وفاة قائد البعثة الذي أتى من الهند ، اذ أنه مات بعد ٩٥ يوما قضاها في عمان أثر ضربة شمس *

وقد استرعى مقال الجنرال هيج الذي نشر في إحدى المجلات انتباه طالب موهوب بجامعة كمبريدج ، هو ايان كيث فالكونر ، فكون أول بعثة للتنصير ، ولم يكن حظه الا مصير من سبقه ، فقد مات بالمalaria بعد اقامة عشرة أشهر فقط في شبه الجزيرة العربية *

ولقد أثرت هذه التضحيات التي قام بها بعض الدعاة الى دين المنصرانية في مناطق الجزيرة العربية في نفس شابين أمريكيين هما صمويل رويهر ، وجيمس كانين ، فقاما باعداد بعثة تنصيرية *

وفي ١٨٩٧ مات « بيتر » شقيق « صمويل » بعد استكشافه للجبل الأخضر ، وفي عام ١٩١٩ وصل « د. شاروت توماس » (في أول بعثة طبية لعمان) الى مطرح ، ومات عام ١٩٢٣ بضربة شمس ، وهو يقيم خطا تليفونيا بين مسقط ومطرح ، وقد أرسل السلطان قاربه البخاري لينقله الى مقابر المسيحيين في مسقط ، وذلك قبل ٢٠ عاما من وصول طبيب آخر لعمان *

وفي عام ١٩٤٨ أعطى السلطان أرضا لبناء مستشفى ، تخليدا لذكرى شاروت ، وتمت إضافة مبنى آخر للعلاج والرعاية ، وقد تم علاج ١٤٠ مريضا بالجذام ، وكذلك أربعمائة مريض بأمراض مختلفة منذ عام ١٩٤٨ .

وقال توماس للكاتب : « ربما تعجب من سبب عودتي الى عمان مرة أخرى ، ولكن هناك قوى كثيرة دفعتني لذلك .» منها حب والدي للناس والبلاد ، والخروج للبحث عن الناس ، وقد عشنا في منزلين على الشاطئ ، استخدم والدي الطابق كعيادة حيث عالج أعدادا كبيرة من المرضى في الصباح ، وأما العمليات فكان يجريها في المساء ، وقد بذلت أمي جهدا كبيرا لجعل الطابق الثاني أكثر راحة وجاذبية ، وقد كنا نعاني متاعب كثيرة من الحشرات ، ومن ارتفاع درجة الحرارة ، ولم يكن لدينا مراوح كهربائية أو ثلاجات ، وكنا نخرج لأشجار النخيل وسط الوادي الضيق ، خلف بوابة المدينة ، للهروب من ضجيج المدينة ، ولانستمتع بالنظر الى شيء أخضر .

وكنا نرى المصابين بالجذام يتجولون ، وكنت أخاف منهم ، فتلت لأبي : لماذا لا ترعاهم ؟ ورد بعدم وجود امكانيات ، وقال لي : عندما تكبر قد تكون طبيبا ، عليك بعلاجهم بالطرق الحديثة ، وحتى عام ١٩٥٥ كان « د+ ويل » وزوجته هما الوحيدين اللذين يعرفان عمان من الداخل ، حيث تقابل « ويل » مع المشايخ وعالج بعضهم ، أما الآن فهناك المستشفيات الحديثة ، والأطباء المؤهلون الذين يحبون الناس ، ويحبهم الناس ، والذين يعرفون التقاليد واللغة المحلية ، وقد أسسوا في الكويت كنيسة مسيحية .

وخلاصة القول ان الدين الاسلامي يعنى الكثير في حياة المسلم اليومية ، أكثر مما يعنيه الدين المسيحي في حياة المسيحيين اليومية .

ويمكن لمسيحي الغرب أن يتعلموا من مسلم الشرق ، فالمسيحي ذو القلب الضعيف لابد أن يتأني وهو يسير في الوضاعة والمذلة ، فينظر

لا احترام المسلم لنفسه ، حيث الروح والكرامة ، والمساواة المطلقة
للإنسان تجاه الله ، ويجب علينا أن نشهد لهؤلاء الرجال بلا خوف أو تردد
أنهم هم المؤمنون • وقد كتب « جوزيف بيت » دارس اللغة العربية
يقول : « هل كان المسيحيون على استعداد للاعتراف بالمسيح ، والاخلاص
له بشدة على النحو الذى يخلص به أتباع محمد صلى الله عليه وسلم له ؟
وهل كانوا على استعداد للسير كما سار المسلمون فى طريق الاسلام
الحنيف ؟ ان الحقيقة كلما كانت أقوى كان الانسان أشد حكمة
وايماناً ، ولهذا فللمسلم دور سليم يعرفه ، فاذا كان له قدرة على تغيير
الشيء الباطل كان عليه أن يغيره ، واذا لم يكن له تأثير فليتركه ، وليس
هذا بالدرجة الأفضل •

الفصل الثالث

صحار

الجبال — مسافرو الصحراء — الطريق البرى —
أشجار النخيل فى الباطنة — صحار — موطن
بلاد السندباد — صحار قديما والآن •

اكتمل فريقنا بعد وصول « د • كروز » عضو البعثة الطبية الفعال ،
وأود أن أتحدث عنه قليلا •

كان « د • كروز » ذا قيمة عظيمة فى رحلتى الاستكشافية الرائدة فى
بيحان عام ١٩٥٠ ، وكان أستاذا فى جامعة « جون هوبكنز » وجامعة
« ميرلاند » وبعض المدارس الطبية الأخرى •

وخلال الحرب العالمية الأولى ، كان جراحا فى الجيش على خطوط
المواجهة ، وذات مرة قال له الجنرال « بير شبيخ » أيها الشاب ، لا تدع
تنظيمات الجيش تجعلك أحمق •

وخلال الحرب العالمية الثانية كان رئيسا لقسم الطب الباطنى فى
مستشفى « والتر ريد » فى « واشنطن » وذات مرة أعطى القائد أمرا
لكل المرضى ، بأن ينهضوا من فراشهم عندما يدخل العنابر ، ولكن « كروز »
رفض ، وأصر على الرفض ، وقرر أن يبلغ القضاء العسكرى ، وقال له :
ان الميعاد ٨ صباحا اذا كان يناسبك ، أيها القائد فانه لا يناسبنى أنا
ولا المرضى •

وعند المساء دعانى السلطان أنا و « بيل » على الشاي ، ووافق
جلالته على طلبى ، بشأن اصطحاب « البروفسير هاينمان » الى دبنى ،

والشارقة ، لاكمال برنامج الجيولوجي في صحار ، وعند وداع السلطان اجسست بالحزن ، وأخذت بلا وعى آلة تصويره الخاصة ، لآخذ له عدة صرور فوتوغرافية ، وقد أرسل السلطان رسالة رقيقة لمكتب الجمارك في « أسود » على الطريق لدبي ، وكذلك الى شيخ بنى كعب ، ووالى البريمي ، وقد علمنا أن الشيخ صقر ، ومعه طالب بن سليمان ، قد ذهبنا قبلنا الى صحار لاعداد الترتيبات .

وفي ٨ يناير عام ١٩٥٨ قام « بيل » بتصوير رحيل القافلة من بوابة المدينة الرئيسية ، والبوابة تمثل رمزا للحياة في المدينة نفسها ، وقد فتحت الطريق من مسقط الى مطرح — محطتنا الأولى — بأمر من السلطان .

وفي مطرح تتقابل السفن البحرية مع سفن الصحراء ، حيث يقع حصن برتغالي حصين ، فوق قمة صخرية ، والأجزاء المنخفضة للأرض القريبة من البلدة بها منازل صخرية وأبراج ، وتعتبر مطرح هي المدينة الصغيرة الأخت لمسقط ، وبها جبال بركانية ، ولا تتعرض للرياح الشمالية الغربية التي تهب أحيانا على مسقط .

وتضم مطرح — وهي أكبر مدينة في عمان — المتحف الرئيسي للسلطنة ، ويتكون المجتمع فيها الى جانب السكان الأصليين من بعض الأقليات ، التي يسكن بعضها في أحياء مسورة داخل مطرح ، والخوجا من الزيدية في اليمين ، وهم تاريخيا فرع من الشيعة رغم أنهم مختلفون الآن الى حد كبير ، ولا يمكن تمييزهم ، وهم ينتمون الى العقيدة الاسلامية . وهناك استراحة خارج سور المدينة على الطريق الرئيسي للقوافل ، وتشحن فيها مئات الجمال ، وتفرغ يوميا ، وتحمل التجارة من أعالي عمال ، وهنا توقفنا لالتقاط بعض الصور ، وشاهدنا قافلة جمال حاملة التمر من الداخل .

وفي مطرح توجد الجمال ذات السنام الواحد ، ولا توجد أنواع أخرى ، ولا توجد جمال وسط آسيا هنا ، والراكب في عمان يجلس على ظهر الجمل فوق سرج صغير مغطى بجلد الابل ، ويختلف من حيث الشكل الى حد كبير لما هو عليه في الحجاز ، وسوريا ، حيث يجلس الراكب على سرج كبير ، يوضع على أعلى قمة الظهر ، وهنا تحسب ثروة الانسان بحسب ما يملكه من جمال ، والمالك هو من يجلس على الأرض ، ويرى آثار أقدام جماله تملأ الأفق ، وقديما كان المالك يترك جماله في المرعى لسنوات عديدة ، وعندما يريد جماله يذهب لمكانها ، ويتعقب آثارها حتى يجدها ، وهذا بالطبع كان يأخذ وقتا كبيرا ، ويفتح الباب أمام اللصوص والمغربين ، وهذه المناطق كان الجمل اذا شعر بالظما فعليه أن يجرى الى أقرب نقطة ماء ، وينتظر مرور بعض الجمال ليشرب معها ، وهذه عادة الصحراء •

وقال المستكشف الانجليزي « كروز » في مذكراته عام ١٨٦٧ « بينما كنت في انجلترا قرأت وسمعت أكثر من مرة عن (الجمل الوديع) • هل هو وديع ، وهل وديع تعنى « أحق » وفي مثل هذه الحالة وجدت أن الجمل هو أعظم مثال للوداعة ، وسألوا الجمل ، أيهما تفضل السفر لأعلى أم للأسفل ، فأجاب اذا كان حاملا شحنة فليأخذها الشيطان كلها •

وفي كتاب « ب • سيبروك » مغامرة في الجزيرة يحكى قصة لجمل مات بعد أن جر نفسه لعدة أميال الى عين ماء ليشرب منها ، ويقسم العرب على ذلك ، ولكن مات قبل أن يشرب لأن جثته ربما تنجس الماء ، ويتسمم من يأتى ليرتوى منها ، بينما ذكر « س • ب • ميل » في رحلته لخليج فارس ، أن هناك تشابها غريبا بين شخصية العربى وبين جماله ، وبين هذه الأشياء ، التى يتشابهون فيها ، كرههم للظلم ، والمزاج العصبى ، والسهولة التى يهدأون بها •

وهناك قصة لجمل قتل انسانا بعد أن هرب الرجل ببعض الأشياء ، وبدأ يتسلق آملا في الخروج من المأزق ، ولكن الجمل وصل اليه ورفع رقبتة ، وجذبه من قدمه ، وبدأ يضربه ، ثم جثم عليه ، حتى تكوم وكان الجمل يأتى كل يوم ليرى الجثة وينظر الى ما تفرق منها •

ويشير بدو الجزيرة الى عمان أحيانا بأنها أم الابل « الجمال » لأن يومانية هي ملكة الابل ، وهذا المصطلح يشير الى فصيلة وحيدة من الجمال ، لها رأس ورقبة أفقية مع الأرض ، ويمكن لليومانية أن تقطع ٥٠ ميلا في الساعة وأحسن فصيلة في عمان توجد في الباطنة من ساحل الباطنة ، وهي مشهورة بصبرها وقوتها التي لا تضعف مع الوقت ، وتشتهر بأنها تقطع مائة ميل في المتوسط يوميا ، الأكثر من أسبوع ، وقد قطع أحدهم ٩٥ ميلا بين البريمي وأبو ظبي ، في أقل من اثنتى عشرة ساعة •

وتاريخ الجزيرة مليء بالقصص والحكايات ، التي تصف قدرة الجمل على التحمل والصبر ، ثم ان الرحلات الاستكشافية كانت فوق ظهور الجمال ، وهناك قول مأثور عند العرب ، وهو أن معظم النساء مثل الجمل المتهادى ، ويتفق العرب على أن الابل هي نعم وعطايا من الخالق للبشر ، والجمل أعظم كل هذه النعم ، من الخالق للجنس البشرى •

فكل جزء من الجمل سواء كان حيا أم ميتا يتم استخدامه ، فالشعر للحبال والخيام ، واللبن واللحم كطعام ، والجلد والعظام للوقود ، وعندما يذكر الجمل يتذكر التاريخ رحلات القوافل ، ولا زالت آثار الجمال تحكى عنهم •

ويقول « ويلفريد ثيسيجر » في وصف رحلته « منذ أيام مررنا ببعض الآثار لجمال ، ولم أكن متأكدا من ذلك لأن الريح غيرت معالمها •• والتفت

السلطان لرجل ذى لحية كان دليلنا وخبيرنا فى الآثار ، ثم أخذ الرجل يتابع ، وقال انها العوامر ، فقد أغار ستة رجال على جينة فى الساحل الجنوبى ، وسرقوا ستة جمال ، وجاءوا هنا من سهامه ، وارتقوا فى مغشن ، ومروا منذ عشرة أيام ، ويقل لك العماني ، خذ رجل قبيلة فى رحلة لمدة ثلاثة أيام ، ثم ارم دولارا فى الصحراء ، وبعد سنوات يستطيع هذا الرجل أن يهتدى الأثره ، ويعود لأخذه ، وتختلف طريقة شرب الجمال هنا عن طريقة شرب الجمال العسكرية التى تشرب يوميا ، ولا تستطيع أن تسير بدون ماء ، وجمال الصحراء اعتادت السفر الطويل الأيام كثيرة .

ويقول « جوك سنيل » انه ركب جملا ، وسار به لمدة سبعة عشر يوما بلا شرب ، وكان يبلى شفته فقط ، وسنام الجمل هى جهاز قياس حالة الجمل من الداخل ، السنام السمين يدل على الطعام المناسب والملح المنتظم وعلى أن الأمور داخل جسم الجمل تسير على ما يرام .

وفى وادى النيل يظنون أن المرأة اذا أكلت لحم جمل قرب ميعاد ولادتها ، فان ذلك يعوق الولادة ، والبدو فقط هنا هم الذين يأكلون لحم الجمل ، وهناك قول مأثور « ما لا يمكننا أكله نعطيه للمرأة لأنها تأكل كل شئ » .

وقد عرف أخيرا أن ترويض الجمل لم يتم منذ فترة بعيدة .

وقد ذكر « البروفيسور ديليام ف . البرت » عام ١٩٤٠ م أنه لا يوجد دليل واضح على وجود الجمل الأليف فى جنوب غرب الجزيرة العربية .

ومن الحقيقى أن الحفريات التى وجدوها فى العراق يرجع تاريخها الى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد ، ولكن أول ذكر للجمل العربى فى أى نص لم

يعرف من قبل ، وباختصار فان استثناس الجمل لم يتم قبل الربع الثالث من الألف سنة ، وحيث كان الجحش سيد هذا المجال •

ويجب أن نؤكد رغم ذلك أن الجمل كان معروفا قبل الألف سنة الثالثة ، ولكن أين تم استثناس وترويض الجمل العربى ؟ يظن « البرت » أن هذا قد تم في جنوب الجزيرة العربية ، ولكن الحفريات لم تدل على ذلك •

وحدد الباحث الألماني الشاب « دالتر » وسط الجزيرة العربية ، ولكن « فيليب » ذكر بأن نجد من طبيعة حجرية ، ولا يمكن أن تعيش فيها الجمال ، ومن الجنوب الشرقى للجزيرة العربية ينتشر الجمل المستأنس الى نجد ، وإلى الجنوب الغربى للجزيرة العربية حيث عرفت القوافل أهميته بسرعة ، وفي القرن العاشر قبل الميلاد قادت ملكة سبأ أول رحلة بالجمال ، سجلها التاريخ لزيارة الملك سايما في القدس •

وبفضل استخدام الجمال تحول الناس في الجزيرة العربية من جامعى ثمار الى تجار ، وقد نكون مصييين اذا أرجعنا تاريخ الترويض بين عامى ١٦٠٠ — ١٢٠٠ ق • م • ولكننا سافرنا بعد ثلاثة آلاف سنة بعد ذلك الحدث الى حيث تتقاطع الأودية الضيقة مع قنوات الري ، والسدود الصخرية ، على ارتفاع ثلاثة أقدام ، وهو جزء من الأحراش المنتشرة ، ووجدنا هناك هذا السهل الساحلى المنحنى الذى يحمل اسم الباطنة ، ويسمى الأرض المنخفضة •

أما أنظمة الوادى فلها جذور تمتد الى ١٥ — ٢٥ ميلا وراء السهل في جبال الحجر العالية ، وتقع وراء سلاسل الحجر المحافظتان الظاهرة ،

(م ٣ — رحلة الى عمان)

وعمان ، وتتقع الظاهرة في الغرب ، وتطل على الصحراء بكثبانها الرملية في الربع الخالي •

وتعتبر عمان الأم هي المركز الحيوى الرئيسى لعمان ، وتتقع فوق سطح البحر ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ قدم ، تجاه المحيط الهندى ، ووراء الأحجار الشرقية توجد محافظتا الشرقية ، وجعلان ، وترتبط الشرقية بعمان الحديثة ، أما جعلان فتقع بين المحيط الهندى والركن الجنوبى الشرقى من الشرقية •

والملاح البارزة في عمان هي سلسلة جبال الحجر الغربى ، التى تنتهى بالقرب من رأس الحد ، الجزء الذى يفصل خليج عمان عن المحيط الهندى وتسمى البقعة القاحلة ، والجبال الوعرة من دبا الى رأس مسندم المعروف باسم رؤوس الجبال ، ورغم ذلك فان المضائق الرئيسية الثمانية التى تجرف مياه البحر لهذه الجبال تسمح بالاتصال الخارجى والتجارة بين الباطنة والداخل ، وأكبر مضيق يضم حوالى مائة قرية وستمائة ألف نخلة في وادى سمايل ، الذى يقسم السلسلة الى شرقية وغربية ، والذى يقابل انحدار الجبل الأخضر الى البحر في السبب ، ويمثل شريان التجارة بين مسقط والداخل ، والسهول الساحلية التى تحيط بمعظم شبه الجزيرة العربية عارية لا نبات فيها •

وساحل الباطنة ليس به ميناء ، ويمتد بطول ١٢٥ ميلا ، وهو أحد الاستثناءات الملحوظة ، ويضم نصف سكان عمان ، وسكان الباطنة هنا يولدون ويموتون في هذه الحدود ، حدود أشجار النخيل ذات الثمار ، وأغلبية الـ ٢٠٠ قبيلة المعترف بها تسكن الباطنة ، وتعتبر الحواسنة ويال سعهما أكبر القبائل ، وتمتد الباطنة في نمط متكرر ، ميلا بعد ميل ، وهى تبدو بلا نهاية ، وأرضها خضراء خصبة ، يحجبها غطاء من الرمال

الجافة ، وهناك شاطئ رملى أبيض متواز مع أشجار النخيل ، يؤدي هو الآخر للداخل ، حيث السهل الملىء بشجر السنط الممتد الى الجبال السوداء فى الخلف ، والتربة الرملية الحجرية متآكلة الجوانب •

وقد عوضت الآبار عن نقص ماء العيون والمجارى الدائمة ، تلك الآبار الكثيرة ، وما يلفت النظر أنه على الرغم من أن هذه الآبار موجودة فى الصخور وتهب عليها مياه البحر فانها تختزن المياه داخلها ، ويتم سحب الماء منها بالوسائل البدائية ، وهناك جبل ذو طرفين فى أحد أطرافه دلو من الجلد ، والطرف الآخر يجره ثور ، وهكذا يتم نزح المياه ، ولا تستخدم الجمال فى رفع المياه هنا ، وهناك أشجار كثيرة فى كل مكان على الساحل ، أما الأخطار المحدقة بتلك الأشجار فأهمها الرياح التى تهب ، فتأخذ من الثمار بعضها ، تسقطه كما لو كان ضربية المرور ، وهناك الآفات التى تتلف الثمار ، ولكن هناك دائما أشجار جديدة تحل محل المريضة التى اجتثت ، ويرتبط الفلاح بهذا النخيل ارتباطا وثيقا ، فهو يسعد لازدهاره ، ويتدهور لتدهوره ، وهناك المنازل المتشابهة المبنية من الطين والحجر •

وتعيش كل أسرة فى منزل من ٣ ، ٤ غرف ، وتستخدم أشجار النخيل كجدار للمنزل ، وتعتبر حرفة قطع الأشجار تجارة ماهرة بالآلات الحديثة ، ومن المعتاد أن العامل يطلب بيضا ولحما ، بالإضافة الى مرتبه كى يحافظ على قوته وصحته من أجل العمل ، ويغطى المنزل أو الكوخ بسعف النخيل ، وتباع أعشاب الحقائق فى الأسواق كعلف للابل ، والكروم من الفاكهة العريقة فى عمان ، وهناك الموز ، والبطيخ ، والمانجو ، وشجر الرمان ، والتين ، والزيتون •

ومنذ فجر التاريخ يوجد فى عمان التلقيح الصناعى لأشجار النخيل ، ويظهر ذلك أيضا عند وصف « هيرودوت » لبابل •

وتقارن النخلة بالإنسان ، اذا قطعت الرأس تموت ، واذا ماتت واحدة من النخيل لا تحل محلها أخرى ، وتغطي بليف مثل شعر الإنسان والشجر الذى ينمو فى الأماكن المرتفعة ويخلو من المرض يقال « ان هذه النخلة قدمها فى الجنة ورأسها فى النار » وفى وقت الحرب يعتبر من الأهمية أن تقطع أشجار النخيل بعيدا عن أعين عدوك ، لأن وجودها علامة الرخاء ورمز التجمعات •

ويخبرنا « ريفين جون فان اس » عن رحلته الخاصة بقوله « منذ سنوات مضت وصل الى المعسكر خطاب ، ولم يكن هناك مصباح لقراءته ولكن النساء قامت بعمل مصابيح من ثمر النخيل على شكل كأس وضعوا فيه السمن » •

وأشجار النخيل وقت النهار حيث تشتد الحرارة يمكن أن تكون مكانا جميلا للاسترخاء واستسقاء الجمال ، وحياة الواحات أكثر راحة من حياة الصحراء ، ويشار الى قبائل الواحات بأنهم « أهل النخيل » وكقاعدة عامة فان العماني يأكل التمر ، الذى يقولون عنه ، انه عصب الحياة أو حفيد الأرض ، ويقال ان هناك أكثر من مائة نوع من البلح ويؤكد العمانيون أن الزوجة الصالحة هى التى تضع أمام زوجها يوميا اناء من التمر • ويصنف العرب التمر الى حار ، ورطب حسب مذاقه ، وتنتج عمان أنواعا كثيرة من التمر ، وتمر الباطنة ينضج قبل أى تمر آخر ، وهناك أنواع فى الباطنة تسمى أم صلاح وتعرفها أسواق الجزيرة جيدا ، وعندما يصل التمر الى درجة الاحمرار يباع بأعلى سعر ، وهناك أنواع لا حصر لها من التمر ، ولها أكثر من ٥٠٠ اسم ، وهنا ينظرون الى النخلة بأنها « ملكة الشجر » والجمال ذو السنام والنخيل هما فى الواقع رمز الجزيرة العربية ، وفى الخارج من سهل الباطنة قطعنا حوالى نصف الطريق الى صحار ، وقضينا أول ليلة فى الخلاء ، وكان المرشدون يتناوبون

الحراسة ببنادقهم ، ثم قمنا في السابعة ، وكان اليوم باردا ، وغير مناسب لالتقاط الصور ، وهطلت الأمطار .

ومن السويق • حيث الحصن الثالث على ساحل الباطنة الى الخابورة كان المر ضيقا ، وكنا نسير في أراضي النخيل • والتقاليد هنا تقول « عندما يشرب الكلب من وعاء فيجب غسله سبع مرات » ، على أن تكون احداها بالقرب ، وبصفة عامة فان الكلاب محترمة في العالم الاسلامي ، على أن من الأعمال الطيبة أن يطعم الانسان حيوانا ، ويقال ان الكلب الأمين أفضل من الرجل النافر للجميل .

وبعد أن رحلنا من القرى الساحلية في صبحم عبرت القافلة ثلاثة أودية ، في السبعة عشر ميلا الأخيرة ، وفي الثالثة بعد الظهر وصلنا الى مقصدنا ، والمكان الجديد هو صحار •• وهي المدينة الرئيسية على ساحل الباطنة •

وعندما ظهرت صحار تاريخيا عام ٨ هجرية ٦٢٩ م كانت قبيلة الأزد تحكم عمان ، وعندما وصل مبعوث الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الى الأميرين عبد وجيفر نجلي الجندى الذين حكموا •• عاما في السنة الأولى من بعثة الرسول حيث تم استدعاء شيوخ عمان في نزوى ، ثم تم الاتفاق حول ضريبة الزكاة التي أمر بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وعم الاسلام صحار ، بعد ذلك ، وبلا شك ان الاقتناع بالعتيدة لعب دورا هاما في ذلك الوقت ، لأن الصلابة والاصرار والتضحية من أجل الاسلام جاءت بدرجات متتالية ، وعندما توفي الرسول ذكر الرواة بأن الرسول قد كفن في ثلاثة أثواب من صحار ، ودخل جيفر الاسلام ، وهرب للجبال ، ثم أرسل أبو بكر ثلاثة قواد الى البحرين واليريمى ، ويقال ان صحار هي موطن السندباد البحري في الليالى العربية

المشهوره ، وربما تكون الباطنة هي الأرض التي تسكنها الوحوش والشعابين ، وليس هناك دليل على ذلك رغم هذا الملاح المسمى بالسندباد كان موجودا بالفعل ، لأنه شخصية حقيقية ، واسم السندباد من أصل إيراني ، وربما كان اسمه سندبام ، وهو مغامر فارسي ، وملاح معروف جيدا في الأدب العربي ، وقصة « سيكولويس » في « الأوديسا » شبيهة في معظم أجزائها بقصة السندباد ، ووادي العقيق •

وتعبر قصص ألف ليلة وليلة عن نشاط وازدهار التجارة العربية الدولية عن الرومانسية ، وعن الأخطار والمغامرات ، والاشارة الى صحار كموطن للسندباد ربما تشير الى أهميتها كميناء بحري ، يأتيه التجار والبحارة بلا خوف •

ومع منتصف القرن العاشر كانت صحار أهم مدينة في عمان ، وأجمل مدينة في الخليج ، وصحار أغنى وأكثر سكانا من كل مدن عمان ، ومن المستحيل أن تجد على الخليج مدينة اسلامية أجمل وأعظم من صحار ، التي كانت مركزا للتجارة •• وقد كتب المسعودي المتوفى عام ٩٥٦ هـ والذي وصف بأنه « هيودوت » العرب كتابه « مروج الذهب » وقد قال فيه : انه سافر مرات عديدة ، من صحار ، المدينة الرئيسية ، الى مدغشقر •

وقد كتب المقدسي « ان أعظم ميناءين في العالم هما عدن وصحار •• صحار عاصمة عمان ، حيث الثروة والأسواق الكبيرة الممتازة ، وتحفل صحار بالأحداث التاريخية الهامة ، ففي عام ١٠٤١ حاصرتها واحتلتها القوات البحرية الفارسية ، كمدخل لغزو عمان ، وفي منتصف القرن الثاني عشر تعرض

ملك عدن سيطرته على الخليج ، وحول تجارة صحار مع الشرق الأقصى الى عدن ، وفي عام ١٢٧٦ انهار عليها جيش المغول من شيراز ، وكانت أثناءها قوية شديدة ذات أسواق كبيرة للجياد ، وذلك عندما ذهب اليها « ماركو بولو » ولكن مع بداية القرن الثانى تغيرت ، ووصفها أبو الفداء السورى فى أحد مؤلفاته فقال ، لقد رأيت المدينة فى خراب •

وفى ١٦ سبتمبر عام ١٥٠٧ وصل أسطول مغولى الى صحار لأول مرة ، بعد الاسكندر ، وهى المرة الأولى التى تصل فيها السفن الحربية الى هذه البقعة •

ومدينة صحار مدينة جميلة ، عدد سكانها كبير جدا ، ومنازلها قوية ، وسور المدينة على ارتفاع كبير ، ويحتاج الحصن الذى فيها الى أكثر من ١٧٠٠ رجل للدفاع عنه ، ويسمى الناس داخل المدينة بالبدو ، وأغلبية الخيالة رماة ، والبعض يحملون الرمح والصولجان التركى ، بينما يرتدى كل المشاة تقريبا القبعات والرماح والدروع •

وتقع صحار اليوم بين ساحل البحر الرملى وبين الامتداد الكبير لأحراش النخيل ، دون أية ملامح طوبوغرافية أخرى ، ويعيش معظم السكان فى أكواخ • كل كوخ منفصل عن الآخر يحيط به سور طينى وأعشاب نخيل ، وهناك ميدان صغير ، تمثل ملامحه الفن المعمارى المحلى الذى لا تلاحظه فى بقية عمان ، وهناك قلعة يمكن السيطرة منها على منطقة صحار ، ولا تزال مشغولة ومستخدمة حتى الآن ، وقد بنى هذا الحصن أيام الفرس ، ثم أدخل البرتغاليون والعرب تعديلات وإضافات تشمل الرسوم والآيات القرآنية المحفورة فى الخشب فوق البوابة مثل « العون من عند الله » و « انا فتحنا لك فتحا مبينا » •

ووصف الميناء الرائع في صحار في دائرة المعارف الاسلامية محير ،
ليس لعدم وجوده ، ولكن لوجود دلائل على كينونته في الماضي ، وربما
كان البوغاز الصغير في الحدود الشمالية للمدينة في الماضي متصلا
بالبحر ، ولكنه صغير جدا ووسائل حمايته غير متوافرة ، على عكس
ما وصف في دائرة المعارف ، وهذا هو خطأ اعتاده بعض الكتاب الذين
يعتمدون على مصادر مكتوبة ، تضم أوصافا رومانتيكية وعظيمة الجغرافيين
والمؤرخين العرب ، الذين ينبغي على القارئ الغربي الاعتماد عليهم •

الفصل الرابع

مقابر الملينة — محمد عليه السلام والطب — الكى علاج

لكل الأمراض — العين — أمراض العيون —

الجراحة — همامات بخار الزئبق — أمراض الأطفال •

بعد الاستقرار فى مكتب الجمارك فى صحار ، ذلك المكان الذى جعله السلطان مقرا لاقامتنا ، قمنا بزيارة كل الأماكن المحيطة به ، والتى كنت قد عرفتھا خلال رحلتى القصيرة الأولى ، فى نوفمبر عام ١٩٥٧ ، وكانت هذه الأماكن التى تشبه المقابر فى وادى الملينة تمتد على كلا الجانبين لمسافة أربعة أميال ونصف ، وهناك مقابر على هيئة فنجان ، أو طربوش مقلوب ، وهناك سور ضعيف يبدو خربا ، وله أبراج للمراقبة ، ووجدنا عين ماء ، تتبعناها حتى وصلنا الى أبنية ، وأبراج مائية جميلة ، على أشكال هندسية ، كل برج له بئر فى المنتصف ، وربما كان الفرس هم الذين شيدوا هذه الأبراج ، بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر ، لتحديد منسوب المياه ، والماء هنا يتدفق من أعلى خلال قناة ، تمر تحت أرض الوادى ، فى أنبوبة ضخمة ، ليرتفع ، ويقابل البرج الثانى ، ثم خلال عين صغيرة الى المدينة البعيدة فى فلج السوق •

وعلى امتداد النهر وجدنا نفقا ، قد شق فى الصخر الصلد ، به انحدارات مائية ، وهذه الأنفاق متصلة بالسطح ، خلال فتحات رأسية للتهوية ، وهذه الأنفاق تجنب ضياع المياه ، نتيجة للامتصاص والتبخر •

من الذى صمم هذا النظام العبقري الذى يعمل بالجاذبية الأرضية ؟ انه مهما كانت جنسيته ، فارسيا أم عربيا ، فلا بد أنه احتاج لعدد كبير

من العمال ، بالاضافة الى قدرته على تنفيذ المشروعات الجماعية الضخمة في المجتمع ، كى يقوم بحفر مثل هذه القنوات في مثل هذا الجفاف ، وفي فارس هناك ما يزيد على المائة ألف ميل من القنوات ، يصل بعضها لعمق ألف قدم ، مثل قنوات جانابار ، وأطول قناة في فارس الآن يبلغ طولها حوالي خمسين ميلا ، ومحاولة الكشف عن قنوات مياه الأنفاق الصناعية في فارس ليس بالأمر الصعب ، وتعتبر هذه القنوات وكأنها سمة من سمات عمان في الماضي *

وفي عام ١٨٣٥ م ذكر « ويلستد » أن كل المـسـدن داخل عمان تـدـين بـخـصـوبـتـها الى الحالة الطيبة التي أفاد السكان منها أنفسهم بأسلوب توصيل الماء .. وهو أسلوب أبعد مما نتصور * أسلوب غريب نشأ من العمل والمهارة ، وهو أكثر قربا للأساليب الصينية منه الى العربية * وهناك قنوات مشابهة تحت الأرض على امتداد الطريق ، من شمال شرق الصين الى اقليم الصحراء في الغرب ، وقد وصف « هيردوت » فارس أثناء الحروب فيها ، وذكر الاجراءات البسيطة التي يقوم بها حاملو الآبار في البلدة أو المدينة ، وكيفية تدميرها وقت اللزوم * وربما يكون نظام الماء العمانى قد تطور في فارس ، ثم نقل الى الجزيرة العربية *

وفي اليوم التالي تركنا مكاننا ، وقضينا ساعتين من السفر الشاق ، حتى وصلنا الى جبل كبير ذى قمة مدببة ، به أطلال قديمة تسمى حورة البرجة ، وقد سمعت هذا الاسم أول مرة على لسان والد جلالة السلطان في بومباي *

ثم توقفنا في نصف الطريق ، أعلى الوادى ، لتصوير مخيمات البدو ، وهناك وبمجرد أن رأونا اصطحبوا الدكتور « كروز » حيث كان هناك رجل مريض ، يرقد على الأرض ، وهنا منطقة مجهولة وموحشة من

العالم ، حيث يسقط البدو مرضى فوق الرمال ، وكان الدكتور « كروز » وكأنه هدية لهم من السماء •

وبعد غداء سريع فى ركن من الجبل بدأنا التسلق على الأقدام ، ومن القمة رأينا خلفية رائعة منتشرة فى كل الجوانب ، عبارة عن مياه البصر الزرقاء الى الشرق « خليج عمان ، وجبال عمان المرتفعة فى الغرب » . وأتذكر أنه قبل ذلك بثلاثة أشهر عندما قمت بأول محاولة لتحديد موقع هذه الأطلال كان دليلى أو مرشدى شيخ لم يشاهد هذا المكان فى حياته ، ولا يعرف أحدا قد رآها قبل ذلك ، وبالطبع عرفت ذلك بعد ساعات سرناها ، وتم تحديد هذه الأطلال التى كان من الصعب التعرف عليها ، وقمت بالتقاط بعض الصور لها فى الحال • وعلى ارتفاع ثلاثة أقدام شأهدنا أسوارا من الحجر الجيرى ، تحيط بها أبراج هندسية ، وهناك قمة غير مستوية ، وهناك على السطح شكل صخرى جميل يمثل الفئجان المقلوب ، ربما يعود الى العصر البرونزى الوسيط ، ورأينا أنظمة للصرف وسدودا وقنوات على الممرات ، وخزان مربع الشكل •

وبعد أن قمنا بجمع العينات الصخرية ، رأينا أنه لا جدوى من البحث هنا ، وأن تلك الأطلال والخرائب ليست لها أى معالم ذات قيمة جديدة •

ويقال ان هذا المكان كان ينتمى لفارس القديمة ، ولكن الأطلال عربية ، وقد قال الشيخ سرحان بن سعيد ، ان عمرو بن العاص أتى هنا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لنشر الاسلام ، وطالب الولاية بالامتنثال ، وقال للتجار « اتركوا الضلال ، وخافوا الله ورسوله » •

وعند العودة للمقر قال الشيخ صقر ، ان واليا جديدا سوف يحضر ، وهو الشيخ على بن حمد ، من قبيلة ملوى ، وقد خدم هذا الشيخ فى

مناطق عديدة في عمان ، وقد تكرم بالسماح لى بالحصول على ثلاثين عاملا ، وانتفقنا على مرتباتهم ، وجاءوا في الصباح ، وتم تقسيمهم الى فريقيين ، لكل منهما رئيس ، وكان من المتفق عليه أن يأخذ كل من « روى وساندى » ثمانية عشر من العمال ، ليبدأوا العمل في تل صحر ، الذى لم يكن يبعد كثيرا عن المقر .

وكان التراكم في صحر يمتد ليل على الساحل ، ويرتفع في الحال وراء رمال الشاطئ ، ولكنه لا يتسع لسوى ربع ميل ، والتل الرئيسى ذو أبنية كبيرة ، بأسوار متدرجة ، تحيط بأكواخ صنعت من النخيل ، وهناك ضوء في الجزء الأسفل من التل ، وآخر يفصل التل الرئيسى عن البقية ، يحيط به خندق ، والجزء الشمالى ليس به سوى بعض المقابر حديثة العهد ، عدا الخط الضيق للأكواخ على امتداد الشاطئ ، وهناك عدة مداخل تنفصل عن البحر بسواتر رملية ، وقد كانت في الماضى موانئ للقوارب القديمة ، وكان الممر الى البحر مفتوحا في العصور القديمة . ثم أخذت أنا وبيل والدكتور كروز الجزء الآخر من العمال ، وبحثنا في وادى المينة حيث عصرنا على عظام وجماجم ، وتأكدنا من وجود مقابر هنا .

وقد كانت هذه المدينة مزدهرة ابان الحكم الفارسى ، قبل دخول الاسلام ، ودمرها الله عندما رفض الفرس الدين الاسلامى ، وبالتأكيد ان تلك المقابر اسلامية ، حيث ان حجارتها غير مستوية ، وليس بالجزيرة ما يشابهها ، ولم أر بالجزيرة العربية مكانا مشابها لها ، ولا بد أن عمان قديما قد شهدت اناسا عظاما ، شيّدوا التاريخ بمجهودات هائلة .

ثم قمت أنا وروى بالبحث في المنطقة الشمالية خلال حصن فارسى قديم في طرف المدينة ، وبعد أن تجولنا لساعات ، اصطحبت الشيخ شاكرا ، وأخذت منه تصريحاً بالحفر ، ثم أمر ساندى رجاله بالعمل قرب سور

الحصن ، وفي ركن من مبنى كبير على أطراف الخندق المغطى بالرمال ، وعلى عمق خمس عشرة قدما ، ثم توقف العمل ، وانهار جدار الخندق ، وظهرت الشقوق حاملة اليها الحفريات •

ولعل أعظم مزايا الحفر الجيولوجي هو أنه يتيح للباحث التعمق أكثر في شخصية الناس والألماام بالعادات والتقاليد ، وقد أفادنا عمل دكتور كروز بالطبع في التعرف على الطب المحلي في عمان •

وقد بين « ايلول شيلر » من قبل ، عندما تحدث عن النظام الطبى في الشرق الأوسط ، أن الاصابات والأمراض كلها حالات عضوية • وأنهم لا يمرضون فقط ، ولكنهم يسقطون ضحايا في وقت قياسي ، بسبب الأعمال الشاقة التى تسبب المرض ، أما عن الطب في الدين الاسلامى ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول ما معناه اذا سمعت عن الطاعون في مكان فلا تذهب اليه •

ويقول الدكتور بول هاريسون : ان العرب لديهم قابلية شديدة للعلاج ، والقرآن الكريم يحثهم على ذلك ، ورغم ذلك فان علم التشريح لا يجد قبولا عند العرب ، وان كانت الأمور قد تغيرت كثيرا الآن •

فقد كان يقال قديما ، ان الروح لا تصعد في الحال عند الوفاة ولكن بعد فترة ، ومن هنا كانت المعارضة الشديدة للتشريح ، وأنه عمل قاس وغير انسانى ، وأنه لابد من احترام الميت حتى ولو كان في بطنه لؤلؤة •

ويدل الطب المحلي في الجزيرة العربية على عدم المعرفة ، كان علاج الجروح هو الكى بالنار ، فمكواة صغيرة توضع على الجزء المصاب كان يتم وصفها للملاريا ، والحالات السيئة لمرض السل ، حيث يضعون قماشا في فم المريض ، وجمرة نار على الجزء المصاب ، وعندما يفشل

الكي تكتب كلمات من القرآن الكريم لكي ييلعها المصاب ، ويتم تحصين المريض بحجاب قرآنى ، وكان هذا الحجاب يستعمل كعلاج للكثير من الأشياء ، ولكي يحفظها من الحسد بالعين الشريرة ، فقد يوضع للجمال ، وقوارب الصيد وكل شيء ، فهناك عين الشيطان ، وعين الحسود ، وعين الحقود ، لذلك فقد كانوا يجعلون الأطفال يرتدون الملابس البالية عند الخروج أمام الناس خوفا من الحسد ، والأطفال لهم قيمة عظيمة لدى العمانيين ، والولد في الصغر يرتدى ملابس فتاة حتى لا يعرف •

ويقال هنا ان الكوليرا تأتي نتيجة للاستحمام أثناء اكتمال القمر ، وأن الكوليرا تسببها الريح الصفراء ، أما الملاريا فيعتقد أن سببها هو التمر غير الناضج ، أو الشرب من الماء الملوث ، والجدرى أحد الأمراض الخفية في مناطق العمران من الجزيرة العربية ، حيث تسببه الأوبئة ، ويتم عزل المريض ليحيا أو يموت ، ويتم تقديم الطعام للمريض بحذر ، وقد أوصد أحدهم بيته على أحد أولاده وتحدى أن يأتي إليه أحد ، وكان يرفض تلقيح ابنه ضد الجدرى وكان يقول ، ان الله وحده هو المقادر على شفائه •

وفي عدن القديمة عرفت الحصبة ، ولعلاجها هناك كانوا يغطون جسم المريض بالكحل ، ويتم عزله في حجرة مغلقة لمدة أسبوعين ، ويتم كسر البيض على الباب حتى لا تدخل الشياطين •

ورغم حث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على النظافة وأنها من الايمان ، فانهم لا يعملون بهذه الحكمة • ولحق أقول ، ان الطب هنا أهم من التعليم ، وقد كان الدكتور « ويل » يعالج في مطرح الآلاف من المصابين بالعمى في عمان ، وكان السبب الرئيسي لهذا هو الرمذ الحبيبي ، ثم مرض الجدرى ، ولكن لا شيء أجمل من رؤية الفرع عند الشفاء ، وقول العربى « الحمد لله » •

ومنذ اليوم الأول في صحار بدأ « جاما » العمل مع الدكتور « كروز » في اجراء العمليات ، وتكرم الدكتور « كروز » باتاحة الفرصة لى لاعداد تقاريرى •

وقد ذكر الدكتور كروز أنه لا توجد أية علاقة للطب الحديث في مسقط ومطرح ، وأن العلاج هنا علاج شعبي ، وأن أمراض الأطفال تنتشر بكثرة هنا ، وفي عمان تلاحظ أمراض العيون بصفة خاصة ، أما الأبحاث على ضغط الدم فقد وجدناه عاديا ، حيث يندر استخدام الملح في عمان ، وهو يستخدم بصورة أقل كثيرا من العرب ، وقلة الملح تجعل ضغط الدم عاديا في هذه المناطق •

وقد شاهدنا الكثير من الاصابات الحديثة ، وان كانت الاصابات قد قلت نتيجة للرعاية الطبية •

والمالريا تنتشر في الواحات ، ولدى الناس هناك ، للحقيقة ، رغبة في المعاونة والعلاج ، ونظام الدفن هنا هو الغسيل ، ولف الجثة في أثواب غير محاكة ، ثم الدفن ، ويستمر العزاء لمدة ثلاثة أيام ، وتمنع النسوة من الصراخ ، والبكاء ، والذهاب للمدفن •

ونسبة الاصابة بمرض الزهري كبيرة ، ويتم علاج هذا المرض بواسطة حمامات الزئبق ، وان كان هذا العلاج يعجل بالوفاة ، لوجود كميات من السموم فيه •

هذه هي الحالة الطبية هنا ، ولا بد من الاهتمام بها الى أقصى درجة ، حتى تذهب الأمراض الى غير رجعة •

الفصل الخامس

أرادة الله — القضاء والقدر — العبودية —

الصيد — كميات السردين الهائلة — الدين

هو القانون — التبييد — محمد صلى الله

عليه وسلم والعبودية — تجارة الرقيق —

صحار اليوم

ذات مساء أخذت أنا وبيل الفريق ، وقمنا باستكشاف على الساحل ،
في اتجاه الشميلية ، أو طرف عمان ، وهي شبه جزيرة على ارتفاع كبير ،
تتكون من صخور مدبية وتعرف برأس مسندم ، في صخور سوداء غير
مستوية ، تفصل المياه الباردة الحميقة لخليج عمان عن الخليج ، وفي
الوقت الحاضر تعد هذه البلدة الجبلية « رؤوس الجبال » موطن الشحوح
الذين لا ينتمون الى أصل عربى « بل الى الفرس مثلاً أو أواسط آسيا »
وبيلنح عدد هذه القبائل حوالى الأربعة آلاف نسمة ، تعيش في أكواخ ،
أو في مساكن نحتت في الصخر ، وتعيش على الصدف أو صنع الأكواخ ،
وحالتها غير مرضية •

ولم نكتشف مدناً قديمة ، ولكننا وجدنا بقايا قلاع رملية ، لا حصر
لها ، تحتوى على مجموعات من أبو جلمبو ، وبينما كنت أمسك
« أبو جلمبو » واحداً من رجله جرحنى ، وقال لى السلطان معقبا على
ذلك ، اننى نلت عقابى من هذا الحيوان المسكين ، الذى هو صديق
لجماعات الصيد ، المنتمية لجنسيات مختلفة من عرب ، وزنوج ، وغيرهم •

وفى شاطئ « الباطنة » تصنع شباك الصيد ، ويصل طول الشبكة

الواحدة الى حوالي أربعمئة ياردة طولاً ، ولها قطاع في المنتصف يبلغ اثنتى عشر قدماً ، ويتم غزل الشباك غزلاً يدوياً ، هذا غير شفاخ الأسماك التى تصنع من خشب النخيل ، بقطر يبلغ أربعة أقدام ، أو أقل قليلاً ، والمياه هنا مليئة بالدرافيل والسلاحف البحرية « بركودا — حصان البحر — كلاب البحر — والسردين » . ويتم تصدير كميات هائلة من كلاب البحر للصين ، ومع ذلك فمعظم حصيلة صيد السردين — من السردين الصغير « سردينلا » ، والذي يجفف بعضه ، ويستخدم كغذاء للجمال ، ويتم خلطه مع بعض المواد ، كى يستخدم كسماد ، ويعتبر هذا السردين هو المحصول الأول على امتداد المناطق الرملية غير الباطنة ، وسواحل وسط ظفار .

ويستخدم الصيادون الهورى ، وهو قارب صغير ، من خشب معين ، يتم استيراده من ملبار ، على الساحل الهندى . وهناك نوع من شباك الصيد يلقي من مؤخرة القارب ، ويمتد على مسافة خمسين ميلاً ، وهو مثال رائع لكيفية التكيف مع البيئة ، فى نطاق الامكانيات المتاحة ، من أجل متطلبات الحياة ، وتصدر عمان حوالي أربعمئة ألف طن سنوياً من الأسماك ، من اجمالى حصيلة الصيد فى العام ، والبالغ مائة ألف طن .

وفى الصباح أرسل لنا الشيخ صقر هدية ، عبارة عن كمينة من البرتقال ، قبل أن يرحل فى الصباح التالى ، ليقدم تقريره للسلطان ، ولابد هنا أن نذكر أن العامل الانسانى هو أهم عامل فى التعامل مع العرب .

ثم تلقيت بعد يومين باللاسلكى رسالة من السلطان ، هذا نصها :

(م ٤ — رحلة الى عمان)

« شكرا لرسالتك •• مسرور لنجاحك وتقدمك •• وأتمنى لك رحلة ناجحة باذن الله » •

ثم توجهت الى الوالى ، كى يصرح لنا بتصوير القصر فى الصباح ، كذلك الأطفال فى المدرسة ، فوافق ، ثم أخبرنى أن هناك أمرا هاما يريدنى لمناقشته •

ويبدو أن الشيوخ المحليين قد اشتكوا من طول مدة تشغيلى للعمال ، وأنه لابد من تغييرهم أسبوعيا ، حتى يستفيد الجميع ، فكان ردى أن العمال أصبحوا الآن ذوى خبرة ، وأنهم يتقدمون فى عملهم ، ولا يمكن أن يقفوا عند ذلك الحد •

وفى الصباح التالى اتجه « بيل » الى مناطق الصرف ، وراء صحار ، حيث أحراش كثيفة من الشجيرات ، التى يبدو بعضها غريبا ، حيث ان الأشجار التى تغطى هذه المناطق من السهل ، والتى تعلو الأرض بمسافة ثمانية أقدام تبدو وكأنها مقصوصة من الأجزاء السفلى ، حيث تأكل الجمال أوراق هذه الأشجار ، التى تصل اليها أعناقها •

ثم عاد « بيل » قبيل الظهر كى يصور عمل الوالى داخل الحصن القديم ، حيث يجلس بجوار المقاضى الشرعى ، وينصت باهتمام الى ما يعرض من قضايا •

والاسلام هو أصل القانون المعمول به فى عمان ، وهو الحكم الأول مع أحد المذاهب الاسلامية « مذهب الامام أبى حنيفة » لأن علم القانون هو معرفة الحقوق والواجبات ، والدين هو القانون ، والقانون هو الدين فهما يجريان فى كتلة غير منفصلة والأساس الحقيقى للشرع هو القرآن ، والعادة من خلال الأنظمة الشرعية للجزيرة العربية تعتبر ظاهرة ،

تستحق الدراسة ، فالقانون هو القانون السماوى ، حيث ان الاسلام دين متكامل يعالج كل أمور الحياة ، وكل أوجه العلاقات الانسانية •

ووفقا لمتطلبات المجتمع العربى ، فقد حدد الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، القانون العرفى الذى يهدف الى تقديم المذنبين للعدالة وحماية الضعيف ، والحفاظ على حقوقه الشرعية ، وبالاغتماد على ممارسة الرسول عليه السلام الشريعة فى المدينة المنورة تصح الرؤية •

وقد جاء فى سفر التكوين « ان من يسفك دم انسان سيأتى من يفعل به ذلك » (من قتل يقتل ولو بعد حين) وفى الحديث الشريف « العين بالعين ، والسن بالسن ، والবাদى أظلم » ، فى قانون التوراة المطلق « الموت للموت ، والدم بالدم ، والانتقام من مقترف الجريمة » . وعلى النقيض من ذلك فان الاسلام يعالج عقوبة الجريمة على النحو التالى :

رجل لرجل — عين لعين — سيدة لسيدة • وهناك الدية ، مع أن الاستخدام العمانى « الاعتذار — سحب الدية — اذا قرر القاضى ، طبقا للحادث ، وحالة الأشخاص محل النزاع » ، حيث ان الرسالة الاسلامية والقانون العرفى قد اتصل به مفهوم أوسع للتعويض الالتزامى للمجنى عليه ، وحسب مفهوم الاباضيين للعدالة فان واجب كل مسلم ، أن ينصح الآخرين لعمل الخير ، ويمنعهم من عمل الشر ، والكل يتساوى بغض النظر عن اللون أو الجنس ، المكان الأعلى للأكثر تقوى « ليس لعجمى فضل على عربى ولا لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى » •

والقانون يطبق على كل مسلم حتى ولو لم يعلم به لتقصيره فى طلب العلم • ومصادر القانون محددة ومنقاة بعناية ، ويعد الانحراف عن المصدر الحقيقى إثم يستحق عذاب الجحيم •

ويسير الاباضيون على القرآن والسنة ، وما يستخرج منهما ، عن طريق ائمتهم ويسيروا على منهج أبى بكر ، وعمر بن الخطاب ، فى الخلافة ، والالتزامات الشرعية ترتبط بالأفكار الدينية ، وأكثر الأنظمة الشرعية مرونة اليوم هى الموجودة فى الجزيرة العربية ، والتي تصل حتى أفغانستان ، ونيجيريا ، والهند ، ومعظم العالم الإسلامى ، وأما المأخوذة من القانون الغربى « الاجرام — العقوبات — المدنى » وما الى ذلك فهى اشتق من القانون الرومانى •

وكما قال السلطان ان ما يحلو فى عين فرد قد لا يحلو فى عين الآخر ، ولكن هناك أشياء سيئة فى نظر كل الناس •

وذكر لنا والى صحار ، أن القاضى هو الذى ينظر فى النزاعات ، والقضايا الاجتماعية ، والمدنية « طلاق — زواج — ميراث » وليس السلطان أو وزير الداخلية ، ويتم رفع حالات القتل دائما الى السلطان للنظر فيها •

ويعتبر والى اسماعيل بن خليل ، والى مطرح ، هو والى الأول فى ساحل الباطنة كله ، وهو لا يرأس القاضى من الناحية القانونية ، وقد لحق بخدمة السلطان عام ١٩٢٨ كمعلم من فلسطين ، ثم عين واليا لمطرح عام ١٩٣٩ ، وهو حاققة الوصل بين ولاية الباطنة وبين السيد سعيد بن أحمد وزير الداخلية ، المسئول أمام السلطان ، عن كل الشؤون الداخلية لعمان ، التى تضم « ٣٣ واليا » وهناك مجلس البلدية ، الذى يتكون من ثمانية عشر عضوا ، ورئيس ، يعينه السلطان ، ويمثل كل مجتمعات مسقط ومطرح • •

ويعمل المجلس الضرائب الجمركية ، وضرائب ، وإيجارات المحلات

ورسوم تسجيل السيارات ، والرخص ، وله ميزانية سنوية ، وينعقد مرة كل شهر ، ويخضع لقانون السلطنة الخاص بالمجالس البلدية • وأثناء غياب السلطان ينوب عنه عمه ، السيد شهاب بن فيصل ، الذى يكبره بست سنوات ، ومع ذلك سواء كان السلطان حاضرا أم غائبا فان عمه يضع فى يده أمور المالية ، والجيش ، والشئون الخارجية ، وتعتبر حكومة عمان امتدادا لشخصية السلطان •

وقد صحبنا رئيس الجند التابع لوالى صحار ، لزيارة مدرسة خارج الحصن ، وشاهدنا سيدة عجوزا ترتدى برقعا ، وقام بيل بتصويرها بعد اقناعها ، ثم سار كل شىء على ما يرام • وكان بالمدرسة ستة وعشرون تلميذا ، بين بنين وبنات ، لكل مجموعته الخاصة ، ويجلس كل تلميذ على الأرض فاتحا المصحف الشريف « وهنا المعرفة التى لا حدود لها •• معرفة الله وتعاليمه » •

والحق فالجزيرة العربية — فى الواقع — عالم كبير لا يسعه كتاب •

ويركز السلطان دائما على أن يبين لشعبه أن العلم ، والتكنولوجيا والمعرفة يمكن أن تزيد الرخاء ، وترفع مستوى المعيشة •

وهناك نظامان للدراسة فى مسقط ومطرح ، النظام الأشمل أو الأوسع وهو يتمثل فى المدارس الحكومية •• مبان جديدة •• والتدريس باللغة العربية خلال ست سنوات •• واللغة الانجليزية فى السنوات النهائية •

وتهدف الدراسة لدى الحكومة بالخبرات ، والكفاءات اللازمة من الشباب وهناك مدارس لتعليم القرآن •

وهناك اتجاه مشجع نحو التعليم والتثقيف الذاتى ، بالاعتماد على

النفس وبدء مرحلة الاستيقاظ نحو العلم ، وكما يقال : « ان أول خطوة للمعرفة هي الشك » •

وهناك الآن تعليم واسع ، بل أوسع مما سبق ، في العلوم الاجتماعية ، والسياسية ، والعلم ، والأدب ، وهناك الكليات والجامعات التي تعمل على رفع مستواها وتحسين كفاءتها ومحاولة اللحاق بالركب الغربى ، وان كان من غير الممكن أن يرتفع مستوى مؤسسة تعليمية دون ارتفاع مستوى مدرسيها •

ونحن في الغرب ندين بتقدمنا لمدرسينا ، واذا ما توفر للعرب نفس التقدم في التعليم فلن يقلوا عنا في شيء ، وعلى أية حال فقد كان العرب رمزا للحضارة ، بينما كنا نحن لا نزال في ظلمات الجهل في العصور الوسطى •

ولكن لماذا فقد العالم العربى زعامته الفكرية ؟ وأين البحث المبكر ، والنشيط عن المعرفة والحقيقة ؟

لقد وقف كل هذا بسبب عدم فهم العقيدة ، حيث ظن العرب أن التجديد قد يدفع بهم الى الانحراف عن طريق الحق • كما أن هناك الايمان الشديد بالقضاء ، والقدر لدى المسلمين ، وهو من أعمدة العقيدة الدينية التى ينشأ عليها الفرد ، ويطبّقها على كل أعماله العقلية والجسدية ، وحيث انها تبعث السلام ، وتجنب الندم ، واليأس وقت الشدة •

ويتمسك الاباضيون جدا بالقضاء والقدر ، من وحي أن الله خالق الأشياء •• الخير والشر •• ولا شيء جديد فى ذلك « خالق النور والظلام » ويقول الاباضيون ان الخلاص يأتى من الله ، وليس بالأعمال « لماذا نحارب المكتوب ، ان القدر لا يتحول ، والمصير لا يمكن أن نتحاشاه » •• المصيبة

هى رحمة فى كامنها « المصائب قد يكون لها الجنة » أما المسلمون المتقدميون فللقضاء والقدر لديهم معنى أكثر قيمة وروعة من ذلك « اعقلها ثم توكل » ويضعون محل كلمة القضاء والقدر كلمة « التوكل » وأن الله يخلق كل شئ والإنسان لا يمكنه أن يتصرف خيرا أو شرا •

ورغم الركود الاقتصادى والسياسى الذى يعانى منه المسلمون اليوم الا أن العلاقة بينهم وبين خالقهم متينة جدا ، ويذكرون عظمة الله سبحانه وتعالى باستمرار ، وأنه لا بد أن نعترف أن القرون الأولى للإسلام كان بها رجال علم ودين ، ورفعة وسمو ، رجال شجعان ، سعوا فى الأرض وتوكلوا على الله ، وربطوا بين الدين والعمل ، وقاموا بواجبهم على أكمل وجه •

وفى عام ١٨١٧ ذكر الشيخ منصور فى كتاب « العرب فى شربه الجزيرة العربية » أن سكان الجزيرة العربية لهم اعتبار واحترام جدير بالاعتبار ، أما الانحطاط والكسل فهو يعود بمجمله الى طبقة الحكومة والقوانين التى يخضعون لها •

وبينما كان الحفر الذى بدأه « هانيمان » قد أوشك على الانتهاء ، كان من الضرورى أن نوقف العمل ، وفى منتصف يناير قررت أن يستمر العمل يوم الجمعة ولكنهم رفضوا ، وتم التغلب على ذلك برفع المرتب روبية زيادة ، تدفع لأحسن ستة رجال ، نريد أن نستقيهم للعمل ، وكان هدفنا فى ذلك الوقت المدفن اليهودى القديم ، الذى يقع على بعد ميل ونصف من صحار •

وقد سجل ويلستد فى كتاب رحلات فى الجزيرة المجلد الأول ص ٢٣١ وجود عشرين أسرة يهودية فى صحار ، فى العقد الأول من القرن التاسع

عشر ، وكذلك السلاجقة بعدهم ، ويبدو أن لجوء اليهود الى هذا المكان كان خوفا من بطش حاكم بغداد ، داوود باشا ، وخلال الفترة التي كان فيها الدكتور « جيمس • س جيكار » جراحا في مسقط ، من عام ١٨٧٠ وحتى ١٩٠٠ ، كان هناك عدد قليل من بنى اسرائيل يعيشون في صحار ، ولكنهم لا يعرفون أصلهم ، ولا يستطيعون أن يقدموا أو يحددوا تاريخ هجرتهم الى عمان ، وفي عام ١٩٥٨ لم يبق منهم غير المدفن ، وعند الوصول الى المدفن القديم في جميدى كانت هناك مقبرة قديمة للغاية ، وطول الأجزاء المرئية من المقابر حوالى ستة أقدام ونصف ، وعرضها أربعة أقدام من الطوب ، وهناك طوب يغطى نصف المقبرة ، ثم بدأت تظهر فتحات عديدة •

وباستخدام الضوء استطعت أن أرى هيكلا عظيما كاملا في الداخل ورأيت أسلوبا غريبا لمدفن الموتى ، حيث كانت الجثة في مربع مرتفع عن سطح الأرض ، وبالفحص اتضح أنها جثة لذكر بالغ ، وكانت العظام هشة ، وكانت الأسنان مليئة بالحفر والتجاويف ، وفي خارج المقبرة كانت هناك أسماء يهودية كثيرة ، مثل : موسى ، يوسف ، يعقوب ، مكتوبة بلغة عبرية ، وبدأ العمل في هذه المقبرة المتآكلة ، ولسبب ما لم يكن هناك أى سطح فوق هذه المقبرة ، وعلى بعد بضعة أقدام للأسفل وجدنا حجرة الدفن ، ثم وجدنا تجويفا ، واتضح وجود هيكل عظمى لذكر آخر ، ووجهه الى الشرق ، وأعد بيل الوجه عاكسا للضوء على المقبرة حتى استطاع أن يلتقط فيلما للهيكل العظمى كاملا •

وبينما بدأ العمل للردم صرخ أحد العمال الزنوج •• الى أين يسير العالم ؟ أنا مسلم أعمل هنا لمدة ثمان ساعات يوميا ، وأحفر في عظام يهودى ميت ، ثم قال لى بعد ذلك انه سيعمل معى مدى الحياة اذا أعطيته ثلاثمائة دولار وأخذته معى •

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كقدوة حسنة كان له تأثير كبير على هؤلاء الناس في ذلك العهد بالنسبة لتحرير العبيد ، وقد أعتق عليه السلام عبدا هو « زيد بن حارثة » الذى أصبح ابنه أسامة قائدا لجيش أبى بكر ، وأصبح من أعظم قواد قريش •

ورغم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اعتبر ملكية العبد كجزء لا يتجزأ من النظام العالمى السائد ، ووجدتها تسود في ذلك الوقت إلا أنه تحدث عنها بكلمات مشددة مؤكدا على انسانية العبيد ، ووجوب الرحمة والعطف عليهم ، والاسلام يقاوم الرق والعبودية ، ويدينهما ، كما أدانتهم المسيحية واليهودية •

وركز الاسلام على ضرورة تحرير العبد ، وعلى الثواب الذى سيناله كل من أعتق عبدا ، وقد قال عليه السلام ما معناه ، ان أسوأ الرجال هو بائع الرجال ، وكان الذين رفضوا هذا المبدأ في العصر الاسلامى هم قنساء القلوب فقط • والعبد يتبع ديانة سيده ، ولذلك فكل العبيد في عمان مسلمون ، وفي معظم الأمثلة نجد أن الاسلام قد قيد العبودية بالقوانين ، واللوائح الدينية ، بحيث لم تعد العبودية هي النموذج المخيف للقسوة والأذى ، الذى يتبع في مناطق أخرى من العالم ، والعبيد في عمان لا يفكرون أبدا في ترك أسيادهم ، حيث يعتبرون جزءا من الأسرة ، وتجمعهم روح الاخوة الاسلامية التى لا تفرق بين السيد وعبده ، ولذلك ربما يأكلون في طبق واحد ، ويرتدون نفس الملابس ، ويقول العمانيون ان العبد هو عبد سيده ، لكن في حالات أخرى يكون مثله ، ولكن هل يمكن للعبد أن يطلق زوجته الأمة في عمان ؟ الاجابة بالنفى لأن هذا يتوقف على السيد •

واذا أراد العبد أن يترك سيده فلن يرجعه أحد ، ومنذ ثلاثين عاما سرق أحد تجار الرقيق — وكان سبيء السمعة — عددا كبيرا من

المغلمان والبنات من ساحل مكران ، وسافر بهم الى ساحل الباطنة ، ليبيعهم هناك في السعودية • وهرب عبد منهم وأبلغ الأمر للسلطان فحررهم جميعهم في الحال ، واذا كان قد تم القبض على البائع الأمضى اقامة طويلة في سجن السلطان •

والقرآن الكريم يحث على تحرير العبيد ، ويقال ان الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنه قد أعتق ما يربو على ألفين وأربعمائة عبد أثناء حياته ، وقال : لا يمكن أن أتحمل هذا الرق ، انه يرهق ضميرى ، أن احتفظ بالعبيد « من يعتق عبدا مسلما أعتقه الله من النار » • وتحت لواء الاسلام ، فعندما يعتق عبد فان السيد يعطيه ورقة أو شهادة أمام الشهود بأنه أصبح حرا ، وهناك أمثلة كثيرة لسيد يعتق بنتا ليتزوجها ، وهذا يشتمل على حكمة عربية ، مؤداها أن العبد عندما يتزوج من امرأة حرة فان أولاده يصبحون أحرارا ، ولكن الأمة تلد عبيدا •

وفي نوفمبر عام ١٩٦٢ أصدر رئيس الوزراء السعودى الجديد ، الأمير فيصل ، قرارا بالغاء نظام العبيد في البلاد •

وقصة بلال ، ذلك العبد الأسود ، ذو الصوت الجميل ، والذي جعله الرسول عليه الصلاة والسلام أول مؤذن في الاسلام ، وكان أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، هو الذى أعتقه ، وقد كان بلال في مناسبات عديدة يتقدم الرسول عليه الصلاة والسلام حاملا الرمح ، وكذلك أسامة بن زيد بن حارثة الذى قاد جيش أبى بكر ضد الرومان ، وكذلك قطب الدين مؤسس الامبراطورية الاسلامية ، وكان هو الآخر عبدا وعندما كان عمرو بن العاص على وشك أن يفتح مصر ، أرسل عبدا أسود لمناقشة شروط الاستسلام البطريرك المسيحى ، الذى قال « ابعدوا عنى هذا الأسود لا أريد أى مناقشة معه » وعندما علم أن الرجل الأسود

هو أحب الناس لدى عمرو فاتح مصر اندهش لذلك ، وقال « حسنا ، اذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أنه يتحدث بلطف ، حتى لا يخيف مستمعيه البيض » •

وبذلك استطاع الاسلام أن يجعل العبد ذا شأن كبير •

وقد قيل عن العبودية في عمان « ان الدين يقرها ، والنظام الاجتماعى يعتمد عليها ، ورفاهية العبيد أنفسهم تتطلبها » •

ومع ذلك فان يوما أو ساعة في الحرية لهى أثمن من العمر كله في قيود • وبينما الأعوام تمر يقل عدد العبيد المولودين ، يوما بعد يوم ، وسيأتى ذلك اليوم السعيد ، الذى تتغلب فيه انسانية الانسان على اغتصاب حقوق الانسان •

« فلا يعد رجلا صالحا من يتحكم في رجل آخر ، والعبودية كلها سواء كانت في أى مجتمع ، في مرحلة من مراحل تطوره ، سوف تموت وتنتهى ، سواء في عمان أو في بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية ، لأن العبودية تحمل في طياتها الظلم ، وهو الشيء القبيح في الطبيعة الانسانية » •

« أليس الرحم الذى حملنى كان يمكن أن يحمله •• أليس الذى خلقنى وخلقه واحدا » •

الفصل السادس

عمال صحار — لغة الملائكة — لورانس العرب —

الحماية البريطانية — لبيى النشطة — البحرين —

امبراطورية الخليج — القراصنة واللؤلؤ *

حرصت ورفاقي في كل رحلاتي أن أتعلم لبعض الشيء في من يعملون معنا ، من العمال العمانيين العاملين في الحفر ، وكان من السهل أن نتمازح في كسل بعض العمال ، ولكن بعضهم كان يقول : من الصعب أيضا أن أعمل تحت هذه الظروف القاسية ، مقابل أربعة ثلثات يوميا ، حتى ولو شجعني البعض على عمل ذلك ، وصعب أيضا أن أعمل إذا دهمني المرض ، وقد بذلنا قصارى جهدنا لتجنب هذه الحالة المعنوية التي يمكن أن يصل اليها العمال *

ومن خلال ملاحظاتي في رحلاتي الى المنطقة العربية وجدت أن العربي يعمل بجهد ونشاط ، ورغم أن هذا العربي لا يحصل على مقابل هذا العمل ، ولكنه يتسم بطموح كبير يمكنه من أن يحقق الكثير لولا الحالة الاقتصادية التي تمنعه من أن يحقق ذلك حتى ان الفرد الواحد ، ذا الطموح البارز ، لا يستطيع أن يهرب من طغولته المقهورة لأنها تطارده *

وديناميكية المجتمع الأمريكي والأوربي ، الذي استغرق الكثير من الأجيال كي يتطور ، بدأت مع المهاجرين الأوربيين الأوائل ، الذين يمثلون أكثر أفراد مجتمعاتهم طموحا في ذلك الوقت ، والمحظوظ من العرب هو من يصرح له بالسفر الى أمريكا ، فذلك الذي يعاني من حالة اقتصادية سيئة في بلاده يدخل أمريكا بنفس طاقته ، فيجد النجاح ، كما لو كان من

أصل أمريكي * وربما يكون نفس الطموح هو المسئول الأول عن الفساد في المجتمع غير الغربي *

ويتحدث جون ماولو عن إيران ، فيفسر لنا ذلك بقوله : في الواقع ، ان شعب أوروبا وأمريكا عادة يدفع الضرائب ويطيع القانون في الكثير من الحالات مثل تراخيص البناء * * * الخ ، لأن الناس أقل فسادا ، وأكثر خوفا على الشعور العام ، ولكن لأن ميكانيكية الحكومة ذات فاعلية كبيرة ، فهي تؤكد للناس أنهم لن يهربوا من الضرائب ، ولن يستطيعوا عصيان القانون * * * ومع ذلك فهم أحيانا لا يفعلون ذلك *

وفي المساء بعد أن توقف ساندی عن العمل بفريقه وصلته رسالة من أحد من عماله ، الذين شعروا بخيبة الأمل لاعفائه من عمله ، وكان من المفروض أن يلحق هذا العامل بالفريق في اليوم التالي *

ومن خلال اتصالنا بالناس عرفنا أنهم أكفأ شعوب الشرق الأوسط ، وفي مناطق أخرى من الجزيرة العربية مثل مصر والأردن يميل العمال الى المشاحنات والشغب والتمرد ، وقليل ما يقومون بالعمل الأمثل ، ولكن عمال صحار يحبون العمل ، ولا يحبون النقاش أو الجدل ، ويدخرون قواهم لعمل اليوم التالي *

وكي نكون أكثر دقة فقد تحدثنا مع العمال ، ولم يكن بينهم أعزب واحد ، وهذه عينة من الذين أجرينا معهم بعض الأحاديث الخاصة *

١ — جمعة بن عبد الله ٢١ عاما — متزوج — يعيش في كوخ بسيط * ماتت زوجته الأولى أثناء الولادة ، بعد فترة من الزواج ، وتوفيت في سن ١٥ عاما ، ثم تزوج من أخرى ، وأنجب ولدين *

٢ — محمد بن سيف — ٢٠ عاما — يسكن في منزل — يملك مائة وخمسين شجرة — متزوج في سن ١٥ عاما •

٣ — جمعة بن فرحان — ولد عبدا منذ ٣٠ عاما ، تم شراؤه في سن التاسعة — هرب بعد ١٤ عاما ، وتم تحريره في مسقط ، تزوج منذ ست سنوات ، له ولد وبنت •

٤ — أحمد بن صالح — ٢٥ عاما — يسكن في منزل ، ويملك بقرة ، وتزوج منذ أربعة سنوات ، وأنجب ولدين •

وتعرضت صحار بموقعها البحري لتأثير اللغات الأجنبية ، فلكى تنادى على العمال لمزيد من الجهد يقول رئيس العمال بالهندية « شوباش » و « برافو » وبين عشرين عاملا كان هناك عامل واحد فقط من مسقط ، من أصل عربى يعرف قبيلته الأصلية ، ومعظمهم من البلوش ، بينهم ثلاثة أو أربعة من الفرس ، والباقي من افريقية ، واللغة الشائعة هي اللغة العربية ، ويتحدث البلوش لغتهم الخاصة فيما بينهم •• وهكذا فلغتهم خليط من العربية والفارسية والبلوشية •

واللغة العربية تنتمى الى اللغات السامية ، وقد استطعنا أن نميز الكلام الأصلي والواضح بمرونة كبيرة ، وباستخدام قاموس كبير ، ذى قواعد ضخمة ، وكلمات كثيرة للتعبير عن الأفكار الفلسفية ، واللاهوتية والعلمية ، فى حالات عليا •

واللغة العربية تتميز بدقة ملحوظة ، وهى مليئة بمصطلحات جيدة ، تعبّر عن العواطف والأحاسيس ، وفن الخطابة ، وقد استعارت اللغة الانجليزية مئات الكلمات من اللغة العربية ، وقد تعرضت اللغة العربية أكثر من اللغات الأخرى لمصير الجنس البشرى ، وتعدد حدود الأرض ، وتوسعت

في المعاني أكثر من أية لغة ، وليس هناك كتاب في التاريخ أو الحضارة يعادل القرآن الكريم ، وقد قال الباحث العربي « محمد دميرى » •
الحكمة توجد في ثلاثة : الفرنجية • رؤوس اليابانيين • واللسان العربي •

واللغة العربية لها روعة خاصة بكلماتها ، لا تضاهيها أية لغة أخرى في التعبير عن العواطف ، لأنه اذا كانت اللغة هي مقر الروح ، فان اللغة العربية هي المنزل والتمثال ، الذي يرتدى أفكارا مشرفة في كلمات قوية ، ويعبر العربي عن نفسه في حكم ، وجمل ، وتشبيهات رائعة ، تعبر عن طلاقة اللسان •

وفي عام ١٩٠٣ كتب الكولونيل أ • س • جاكار ، في مقدمة قائمته النادرة والقيمة للحكم والأمثال العمانية يقول : حتى ان الباحث في العلاقات السببية ، لا يمكن أن يلاحظ هذا الاستخدام الشامل والواسع الذي يقوم به العمانيون ، في أقوالهم المأثورة ، وفي محادثاتهم ، ولا يمكن أن يمر دون ابداء الإعجاب من السهولة التي يستخدمونها بها ، عندما تدعو الحاجة ، وأروع من ذلك أن المبادئ الأخلاقية تلقن عن طريقها ، ويمكن اعتبارها جزءا من تراث الجنس البشرى منذ عصور بعيدة •

ولاحظ « ويلستد » أن العرب لا يتحدثون الا بأن يجعلوا حديثهم يشتمل على مثل هذه المعاني ، واللغة العربية عند العرب هي لغة القرآن ، ولغة الوحي ، والالهام الذي ينزل على الانسان ، وهي اللغة الأم ، ولغة الجنة ، وهي التي سيتحدث بها الله سبحانه وتعالى ، وسوف يحكم بها العالم ، وهي لغة الملائكة ، وعناصر الجمال في اللغة متعددة ، ذات قاموس ، ليس له حدود ، وهي غنية بالمتراذفات •

وفي الوقت الحاضر تمثل اللغة العربية الاختلاف الرأسي ، الذي يعتمد على الطبقة الاجتماعية ، والاختلاف الأفقي الذي يعتمد على الفصل الجغرافي .

ويقول الغرب : ان الاختلاف والتطور اللغوي للعربية هو نتيجة اجتهد كبير ، لأنها من أصعب اللغات في العالم .

ويقول « بان فالكونر » عضو البعثة اللغوية ان القواعد النحوية العربية يجب أن ترتبط بقوة لدى الدارسين ، لأنهم أحيانا يلقون بها على الأرض ، وهناك مثل رائع وهو لورانس ، وكيف أتقن العربية ، وتنقل وسط العرب ، دون تمييز كعربي ، وقد تحدث مع الكثيرين عن كيفية اتقانه للعادات والتقاليد ، وكيف أنه يستطيع أن يتحدث بالعربية عندما يريد ، وكيف استطاع أن يتجول وسط العرب كشاب عربي ، أو كشاب من طرابلس ، ولكن ذلك لا يعني أن الأجانب لا يستطيعون تحدث العربية مثل لورانس ، فالكولونيل « ج . ايتشمان » كان ملحقا انجليزيا ، وكان واحدا من مكتشفى الجزيرة ، وكان يتحدث العربية كأهلها .

وذات مساء ، دعانا الشيخ هلال بن سلطان لزيارة قريته ، الخابورة على ساحل الباطنة ، وبينما كان « كروز » يعالج ابن الشيخ الصغير من العمى في إحدى عينيه ، تحدثت أنا والشيخ عن أطلال وخرائب المدن القديمة ، وقد ذكر مكانا على بعد أربعين ميلا من الحاجر ، به كميات كبيرة من الطوب المهشم في كل من الجبال والى أسفل في السهول ، ورغم العروض الرقيقة لضيافتنا فقد أرجأت ذلك الى زيارة أخرى .

وفي الصباح بدأنا نعد للرحيل قاصدين الشارقة ودبي ، وقد قررت أن أترك روي ، وعلى ، في صحار لكي يستمرا في البحث أثناء غيابي ،

وفي الطريق توقفت عند قصر جيش صحار حتى اتصل بالسلطان ، وبالإضافة الى فريقنا (د • كروز ، وجاما ، وساندى ، وأنا) كان معنا عمانيون أعارهم لنا السلطان وهم (عبد الكريم ، وطالب بن سلطان) •

وخلال الأربعة وأربعين ميلا الأولى كانت الرحلة صورة من رحلتنا من مسقط لصحار ، وأمطرت السماء في الصباح ، وكانت الأمواج عالية وبدأت الشلالات الجافة تمتلئ وتشمل وادى نبر ، وتمر بصعوبة في الصخر وعلى مزارع أسماك في لوى ، وشفاص ، والمرير ، وتتكون هذه الأماكن من نفس أكواخ النخيل في الباطنة ، ورغم مرورنا بها الا أننا لم نفحصها جيدا ، وتسيطر على كل من لوى وشفاص قلاع خربة من أيام الازدهار الماضية ، وفي يناير عام ١٨١٠ تقابلت قوات السلطان سعيد الكبير والانجليز في جانب من حصن شفاص ، وهناك أمثلة رائعة وبطولات مجيدة ، تروىها أطلال هذا الحصن •

وبعد طعام جيد عند وادى أسود عدنا للجبال ، وتتبعنا وادى القور والأراضى هنا تبدو وكأن نموها قد توقف ، والمكان مليء بأشجار السنط ونباتات الطرفا ، والدخن وأشجار النخيل ، والحمام الطائر ، في الحال أرسلنا تحياتنا الى مكتب جمارك السلطان •

وعندما تسلم أحمد بن نوروك خطابى من السلطان قبله ثم وضعه على جبهته ، ثم ذهبنا عند أحمد الذى أكرم ضيافتنا على أكمل وجه •

والنظر من أعلى وادى القور يذكرنى بشبه جزيرة سيناء ، فالجبل عار مليء بسدود جيولوجية وأبواب ، وبين قرية حميلات وبين جبل القور فحصنا الأطلال الصغيرة التى تعرف محليا بالخروص ، وشاهدنا طوبا صغيرا جدا ، ولم يكن للبحث قيمة كبيرة تذكر هنا في هذه البقعة المليئة بالصخور •

(م ٥ — رحلة الى عمان)

وتمتد عمان القديمة الساحلية من شبه جزيرة قطر عبر الخليج الى رأس الخيمة ، وتعبر خليج عمان لمسافة ثلاثمائة وخمسة وعشرين ميل ، ويعرف بساحل القراصنة ، وأصبح هذا الساحل ساحلا مسالما عندما قام الشيوخ في القرن التاسع عشر بهدنة مع حكومة الهند — الحارس القوى للخليج في ذلك الوقت ، والحاكم الذى يفض المشاحنات والخلافات السياسية في شبه الجزيرة العربية •

وتعرف هذه الاتفاقيات والمعاهدات بمعاهدة الصلح أو اتفاقية الهدنة ، وهى تحتوى على عبارات تستثنى الأجانب من تملك الأراضي ، وضمان الأمن البحرى الخليج ، وتنظيم تجارة الرقيق ، والغاء القرصنة ، وبالفعل فقد هاجم هؤلاء الشيوخ بعضهم ، واستولوا على ممتلكاته •

وفي عام ١٨٢٠ قام ثمانية مشايخ بتوقيع (معاهدات هدنة) ، وتشمل هذه المشايخ البحرين ، وقد أخذ الساحل اسما من هذه الهدنة فأصبح اسمه عمان المهادنة أو المتصالحة ، ويتكون ساحل عمان المهادنة هذا من سبعة مشيخات صغيرة ، منها دبی ، والشارقة ، وعجمان ، وأم القوين ، ورأس الخيمة ، ومنذ عام ١٩٥٢ أضيفت مشيخة الفجيرة ، الصغيرة الحجم ، التى تواجه خليج عمان •

ورغم أن الحماية البريطانية لم يتم اعلانها على هذه الامارات ، ولكنها كانت مستترة تحت اتفاقيات معينة وتدخل ، واملاء أوامر فيما يختص بالشئون الداخلية والتمثيل مع الحكومات الأخرى على المستوى الدبلوماسى ، وحول هذه الاتفاقيات تقول احدى وجهات النظر ، ان الحماية تعنى مراقبة ما يدور الى أن يتغير الناس ، ويستطيعون أن يدبروا أنفسهم بلا رقيب ، وقد تضمن خطاب اللورد « كرزن » عام ١٩٠٣ بمناسبة زيارة ملك الهند للمنطقة ما يأتى :

« نحن لم نستول على أراضيكم ، ولم ندمر استقلالكم ، ولكن حفظناه دون احتلال للأراضي ، والحماية ليست ظلما أو قهرا » •

ويبلغ عدد سكان الساحل حوالي مائة ألف نسمة تقريبا ، وهم خليط من العرب ، والفرس ، والبلوش ، والهنود ، والزنوج ، وكل سكان الساحل مولعون بالبحر أكثر من أى مجتمع آخر في الجزيرة العربية •

وبحلول الليل سرنا الى دبي ، وهناك أخبرونا أنه توجد الاستراحة الوحيدة ، لذلك عدنا ، وجلسنا في استراحة المطار •

وبينما كنا في صالة الطعام ، رأينا رجلا انجليزيا يجلس أمامنا ، وقام بدفع ثمن زجاجة الكوكاكولا الصغيرة من أجله ، وعندما شكرته جاء وقدم نفسه بأنه مسئول رسمي في شركة البترول العراقية •

وسألناه بعض الأسئلة بخصوص الشركة ، ولكنه رفض الاجابة بقوله ، انها أسرار ، وأصيب بالدهشة عندما رد « بيل » وأخبره أنه يعرف كل شيء •

هنا ترى المدينة قائمة على امتداد سواحل الوادي الضيق ، بشوارعها وحاراتها الضيقة ، وهنا كذلك ترى المباني ذات الأبواب المزخرفة ، وكلها تقع في مواجهة البحر حيث تستقبل النسيم البارد ، بسبب نسبة الرطوبة العالية في أشهر يوليو ، وأغسطس ، وسبتمبر الحارة •

وفي الشمال الغربى على بعد ميل تقع المدينة الحديثة •

وفي الصباح التالي استيقظنا على صوت المطر ، وبعد شراء المؤن

اللازمة من محل هندی فی دبی أخذنا قارباً وعبرنا المجرى المعروف بنهر دبی ، والذي يفصل بين جزئين ، وقد كان هذا المجرى المائي رائعا ، رجل ومجدافان يقومون بكل العمل ، والنهر نفسه أوسع من القارب ، وهو يسع عبارة تحمل أربعمئة وخمسين طناً ، وقد ظهرت دبی عام ١٧٩٩ ، وظلت حتى عام ١٨٣٣ جزءاً من أبی ظبی ، وبعد هذا التاريخ أصبحت منفصلة عن الدولة الأم .

ويبلغ عدد سكان دبی حوالي خمسة وأربعين ألف نسمة ، وهم أكثر سكان ساحل المهادنة تقدماً وعدداً ، وتعد البحرين أكبر ميناء ، ويملك تجار دبی حوالي أربعمئة سفينة ، ويرجع أصلهم الى الشرق أكثر من الغرب ، ومعظم التجارة مع جنوب شرق فارس ، وباكستان ، والهند ، ومقر المشرف السياسي بالباطنة ، أما المقر الخاص لمشيوخ الهدنة فقد انتقل من الشارقة ، وهو الآن في دبی ، وهي التي نجحت في التجارة مع فارس ، وتسمى الآن بفينيسيا الخليج .

ويقدر عدد سكان دبی بحوالي خمسة وأربعين ألف نسمة ، أكبر بمعدل ستة مرات من الشارقة ، وهي أكثر جاذبية ، وأقل في التأثير بالغرب ، ولا بد أن الموانئ التجارية على خليج فارس والهند والصين في القرن السابع عشر والثامن عشر كانت مثل دبی اليوم .

وفي الجزء الشمالي من المياه مقاطعة تعرف بديرا ، بينما تقع المدينة الرئيسية لدبی في الغرب ، وهناك تجد المنازل الجديدة التي يمتلكها الهنود والتجار الفرس ، وبرجا هوائيا للتهوية ، والسوق هناك يذكرني بساحل تهامة في اليمن ، حيث أن كلا من الجديدة ودبی لهما معالم متشابهة وشوارع تجارية ، وسرنا هنا رغم الأمطار مخترقين طبقات الوحل الكثيفة .

وفي عام ١٩٣٨ نجح الشيخ سعيد بن مكتوم ، وابنه راشد ، في القضاء على تمرد كان يهدد هذه المدينة ، وفي عام ١٩٤٠ اندلعت الحرب بين دبي والشارقة حول الحدود ، ولكن الشيخ سعيد قاوم ، واستبسل ، ودافع عن أكبر حصن في دبي وخارج دبي ، وقد التقط « بيل » صورا لسلسلة من آبار المياه الفريدة ، وفوق قمة كل بئر كان هناك صندوق خشبي صغير مثبت ، وله قفل • أما تبرير ذلك فهو أن لكل أسرة بئرا ، والماء هناك يباع ، ويربح البائع كثيرا • وهناك نزاعات ومشاكل كثيرة حول هذه الآبار •

وصباح أحد أيام الجمع ودعنا ساندى ، الذى كان على وشك السفر ، عائدا الى انجلترا عن طريق البحرين ، لؤلؤة الخليج •

ولنا هنا وقفة فيما يخص البحرين ، فمنذ عام ١٩٥٣ ، أسست البعثة الاستكشافية تحت قيادة البروفيسور ب • ف • جالوب وجيوفري مركزا مستمرا في الجزيرة ، ومنذ خمسمائة عام كانت البحرين تعرف « بالجزيرة المقبرة » حيث أنها تحتوى على مائة ألف مدفن ، وقد كانت مركزا تجاريا هاما ، يربط الثقافات مع حضارة وادى الأندلس في الهند ، وبفضل هذه الرحلات يمكن معرفة تاريخ مقابر الجزيرة العربية ، والذي يعود الى النصف الثانى من الألف سنة الثالثة قبل الميلاد ، ويعتقد أن البحرين كانت هي ، دلمون القديمة ، كما جاء في الوثائق التى جمعت عن الحضارة السومرية ، وعن وادى الأندس ، وقد كان الفرس يحكمون البحرين من عام ٦١٥ م وحتى ٧٢٣ م ، واحتلها البرتغاليون من عام ١٥٢١ حتى ١٦٠٢ • والموقع الاستراتيجى الحديث للبحرين يعود تاريخه الى عام ١٧٨٣ ، وهو نفس العام الذى طرد فيه شيوخ العرب الفرس من الجزيرة ، ومع ذلك فقد دفعوا الجزيرة لفارس ، ولكنها لم تستمر ، وفي

عام ١٧٩٩ قامت عمان •• بأربع سفن ، وستة قوارب ، وبشجاعة نادرة ، ودون أن تخشى الفرس واحتلت البحرين للمرة الثالثة في القرن الثامن عشر •

وهناك بقايا حصن عمانى كبير ، شيده أثناء تلك الفترة ، السيد سعيد بن سلطان بن أحمد على شاطئ البحر ، ثم خرج العمانيون ، وقد هزم العمانيون نتيجة خدعة ، وبسبب الكوليرا •

وقد قضيت ساعات جميلة مع أمير البحرين القدير ، الشيخ عيسى ابن سليمان ، في فندق بلندن « دروسيتز » وكذلك في البحرين ، وقد ناقشنا مشاكل الخليج •

وبعد وفاة والده السيد سلمان في ٢ نوفمبر عام ١٩٦١ عن تسعة وستين عاما أصبح الشيخ عيسى حاكما لامارة البحرين المستقلة ، ورغم الحماية البريطانية على البحرين فان بريطانيا تمارس هذه الحماية بطريق غير مباشر ، وتقوم البحرين بالتمثيل الدبلوماسى مع قطر •

وهناك قضية أخرى ، هى أن فارس تعتبر البحرين جزءا من أراضيها الاقليمية ، وأنها « أى البحرين » تمثل تهديدا لأراضيها •

وفي الفترة التى أعقبت وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، كان الخليج فى يد الفرس ، ولكن مع بداية القرن العاشر حاصر بحارة عمان كل التجارة ، الى أن استولى البرتغاليون عليها ، ثم جاءت أسبانيا بتشجيع من انجلترا •

وهناك أعمال نشطة فى القرى الساحلية تقام للبحث ، واستخراج اللؤلؤ الذى تحدث عنه الشعراء العرب ، ووصفوا أمطار الربيع التى تسقط

على شاطئ اللؤلؤ ، الذى يمتد عبر الشواطئ العربية للخليج ، من دبی جنوبا ، الى الكويت شمالا •

والبحرين هى المحور الرئيسى لصناعة اللؤلؤ ، واللؤلؤ هناك هو الأكثر صلابة ، ويتم استخراجہ من مياه البحر العميقة ، ويبدأ الغطس لصيد اللؤلؤ فى يونيو ، ويستمر حتى الأسبوع الأول من أكتوبر ، وأفضل الأماكن لوجود اللؤلؤ هى التى تكون على بعد خمسة أو عشرة فراسخ تحت الماء ، وهناك شعاع يقول « اجعل ابنك ترتدى لؤلؤة من البحرين » •

وقد عانى ساحل الهدنة كثيرا بسبب اللؤلؤ فى الماضى ، سواء عن طريق القرصنة أو الاحتلال • وقد كانت القوارب هناك تعد بالآلاف ، واليوم ليس هناك سوى مئات قليلة •

ومستوى معيشة صياد اللؤلؤ منخفض جدا رغم عمله الشاق ، فهو يحصل على مكافآت قليلة جدا ، وتراه دائما فى ديون مع صاحب العمل ، حيث ان المنصرف أكثر من الربح ، أو المكافأة التى يحصل عليها ، وهناك أخطار عظيمة وخطيرة تواجه صياد اللؤلؤ وان كان هذا قد اختفى الآن الى حد ما • ورغم كل ما يعانىہ صياد اللؤلؤ الا أن يردد دائما •• ماذا أفعل ؟ هذا هو الواقع ، وتلك هى الحال •

الفصل السابع

أحوال العرب — قانون الخيمة — جبل الشيال

الحكيم حجا — الجريمى

لا نكون مبالغين اذا قلنا ، ان الدليل العربى الذى كان يصحبنا كان هو السبب فى تضليلنا الى حد ما ، فقد سار بنا فى الطريق الخطأ ، وفى النهاية أوقف جاما قافلة كانت تمر بنا حاملة الفحم ، وسأل قائدها عن الطريق ، وهكذا صححنا مسارنا ، ووصلنا فى المساء الى جبل المينى ، وهو جبل كامل مغطى بالأطلال ، وقد بدت المنازل القديمة كأطلال قديمة ، أعيد استخدامهما ، وقد ذكرتنا هذه بساحل ظفار وأطلال حاسك * وكان من الصعب تمييز المباني المشيدة من الحجر الطينى عن تلك المشيدة من الأحجار الصخرية •

ومن قمة الجبل شاهدنا هناك خلفية هادئة من الأطلال ، والحقول المحاطة بأسوار ، كانت تشمل فلجا صغيرا ، يمتد الى الغرب ، والى الجنوب والشرق كانت هناك جبال عالية تطل من أعلى ، ثم اتجهنا الى وادى أراميا ، حيث كان الجو أكثر برودة ، وحيث توجد بعض التكوينات الجيرية ، وعندما حل الظلام وصل مرشدونا الى واد ضيق عميق ، ذى ماء جار ، وأشجار سنط وأحراش كثيفة ، وذكر أحد المرشدين أننا على بعد ساعة من قرية فحطة ، مقصدنا الأول ، ثم بحثنا عن بقعة فى أعلى الوادى لكى نستريح فيها ، حيث فضل الدكتور كروز عدم الإقامة فى القرية لأسباب صحية ثم عثرنا على مكان جميل ، ووزعنا البنادق ، وقررنا أن تكون الحراسة بالتناوب •

وفي الصباح ، وبعد ساعة ونصف ، من القيادة بالسيارة ، وصلنا الى واحة شرم الجميلة الخضراء ، حيث شاهدنا قرية كبيرة ، وحصنا فيه برج مربع ، تحيط به أشجار من النخيل ، ووجدنا الشيخ عبد الله بن سالم الكعبي ، الذي كان في انتظارنا منذ أربعة أيام ، وكانت تحيته لنا كتحية الشعراء ، رقيقة وجميلة ♦

وقد وصلتني رسالة من السلطان ، وبعد أن قبلتها قرأتها ، فاذا بها أوامر للشيخ عبد الله بمرافقتنا الى البريمي ، ومن هناك تم وضع الاجراءات والترتيبات لتأمين عودتنا الى صحار ♦

وفي الجزيرة العربية يكون الشيخ الصديق هو نصف المعركة في الصحراء الموحشة ، ولهذه الجزيرة سحر وبريق أخاذ ، كواحدة من الممالك القديمة ، وهي تستحوذ — بلاشك — على اعجاب كل من يراها ، وبالنسبة لرجل مثلي فقد أعجبتني تلك البساطة التي يعيش فيها الناس هنا ، ورغم أن هؤلاء العرب غير متعلمين الا أنهم ليس أقل ذكاء من الغربيين ♦ ومنذ فترة طويلة قالت « الليدي آن بلنت » في مجمل حديثها عن البدو « ان البدو لا ينظرون الى الضيافة التي يحسنون القيام بها ، على أنها واجب تفرضه العقيدة والدين فحسب ، بل لأنها عمل يقومون به عن اقتناع عقلي تام » ♦

وكل بدوي سواء كان غنيا أو فقيرا تراه كريما للغاية في ضيافته ، ولقد كان لهذه المعاني من كرم الضيافة صدى كبير على صفحات الشعر العربي ♦

وحتى اذا زار البدوي واحد من ألد أعدائه ، يوما ما ، في خيمته ، ووقف على المدخل ، فان حق البيت أو قانون الخيمة يحتم القيام بمهام

الضيافة في الحال ، حتى ولو كان العدو قاتلا لأحد أقاربه ، فان الأبناء وصاحب الخيمة هم الذين يقومون بخدمته ، وهذه هي القيم الموروثة الخاصة بالضيافة العربية ، ورغم أن الأرض التي نشأ عليها هذا الكرم فقيرة الى حد كبير الا أن الكرم العربي لا حدود له •

وقد تحدث الكثيرون من المستكشفين الأجانب من الغرب عن الكرم العربي ، وضربوا الأمثلة التي رأوها بأعينهم ، وعاشوا لحظاتها التي انطبعت في نفوسهم •

ثم توجهنا الى قرية مأرب ، ولهذه القرية ذكرى غريبة •• فعندما ذهبنا هناك أحاط بنا رجال القبيلة ، وصوبوا بنادقهم إلينا • وكانت وجوههم صارمة ، ونبراتهم غليظة ، حتى بدا لنا أننا في أزمة ليس لها مخرج ، وحتى عندما خرج واحد لتحيتنا صوب الزعيم بندقيته اليه ، وهنا تحدث « جاما » الى الزعيم وسأله « ألم يخبرك السلطان عنا ؟ » وهنا قال الشيخ الزعيم : لا وان لديه أوامر بإطلاق النار ، وقال « أنتم أسرى — أو سجناء » وهنا أخذ « جاما » يؤكد له سلامة موقفنا ، وتأييد السلطان لنا ، حتى تأكد من ذلك ، وخرجنا من تلك الأزمة الغريبة •

وخلف تريم قطعنا ميلين ، ومررنا على النويجي ، حيث التقط « بيل » بعض الصور لجبل خويل ، ثم وصلنا الى قرية مخطلة ، وهي قرية الشيخ عبد الله ، عاصمة بني كعب ، والتي تحتل موقعا متوسطا بين ساحل الباطنية ، والبريمي ، والساحل القديم ، وهناك حصن كبير ، يرفرف فوقه علم السلطان ، وهنا نجد العادات العربية ، وكرم الضيافة ، وأكواب القهوة ، والفاكهة اللذيذة ، وخدمة الضيف الرقيقة ، وللقهوة هنا مكانة خاصة في حياة البدو ، فهي لدى العربي كالهواء الذي يتنفسه ، ويقول

البدو للضيوف دائما ، ان القهوة معدة ، وخلال مناقشة هادئة جميلة طابت من الشيخ عبد الله للمرة الثانية أن يؤجل موعد الغداء حتى نعود بعد الظهر حيث كنت أرغب في زيارة مقاطعة ، تبعد ثلاثة عشر ميلا في الشمال الشرقي ، وأخذت وقتا طويلا حتى أقنعتة ، فالمستكشف هنا يحتاج للصبر دائما ، وكما تقول الحكمة العربية « العجلة من الشيطان » ♦

وفي مدينة تباح القديمة تغطي الأطلال مساحة كبيرة من الأرض بلا مبان مرئية ، وتوجد فقط أساسات صخرية منتشرة هنا وهناك ، وخنادق ، وتشابه هذه الآثار مثيلتها في فلج السوق ، وهنا يوجد مجرى مائى أفسح لنفسه المكان في الصخر الصلب ، وخلال أربعين دقيقة عدنا لقرية مخطلة ، وتناولنا الطعام لدى الشيخ عبد الله ♦

وأثناء الطعام تذكرت أقصوصة مضحكة ، من أقاصيص التراث تروى ما حدث للحكيم جحا في ضيافته لرجل جاءه وأعطاه مصباحا ، وطلب عشاء ، فأكرمه جحا وأحسن اكرامه ، وفي اليوم الثانى أتاه رجلان ، وقالوا له : انهما صديقا صاحب المصباح ، وتناولوا العشاء ، وفي اليوم الثالث أتاه ثلاثة ، وقالوا له انهم أصدقاء الرجلين ، صديقى صاحب المصباح ، ويريدون عشاء ، فأكرمهم كذلك ، وفي اليوم الرابع جاءه خمسة وقالوا : انهم أصدقاء الاثنين ، صديقى صاحب المصباح ، وطلبوا عشاء ، فقدم لهم جحا الماء فقط ، وقال ان هذا الماء هو صديق ماء الثلاثة رجال أصدقاء الرجلين ، صديقى الرجل ، الذى أعطاه المصباح ، وأوقد النار عليه ♦

وقد كان الشيخ عبد الله كثير الفخر بابنيه الصغيرين ، اللذين م يجلسا معنا ولو للحظة ، وقد قدم لنا الشيخ بعض رجاله وحارسه الخاص ، ليسيروا بنا الى جبل حفيت ، الذى يرتفع على الصحراء كحوت

يقف على مؤخرته ، وهذا الجبل تسكنه الحيوانات المتوحشة ، ثم وصلنا الى مقر قيادة والى البريمى ، الذى خرج ورحب بنا ، وهو الشيخ سالم ابن حميد ، وعمره ستون ، وقد توفى هذا الرجل فى السيب فى مايو عام ١٩٦٠ ، وقد خدم كوال منذ يوليو عام ١٩٥٧ ، وعندما أعطيته رسالة السلطان قبلها ، ثم وضعها على جبهته ، وأردف قائلا ، بأنه عرف السلطان منذ كان طفلا ، وقد عرضت عليه أن أقيم معسكرا فى الرمال ، ولكنه صاح ، ورفض ذلك بشدة قائلا ، ان كل منازل مفتوحة لخدمتنا ، وقال « أستغفر الله » .

وعند خروجنا وصلنا الى وسط البريمى وهى عبارة عن قلاع كبيرة ، ومنازل من النخيل ، وتضم الواحات تسع قرى ، أقدمها هى البريمى ثم حمامة ، ثم سارة ، حيث قبائل « النعيم وبنى جابر — والشميس » ، وهم يخضعون لسلطان عمان .

واليوم وعندما يقول أى شخص فى الساحل القديم انه « ذاهب الى عمان » فالمقصود والمفهوم هو أنه ذاهب الى البريمى ، أقرب جزء من عمان ، أو فى عمان .

الفصل الثامن

الرمال الحمراء — الرباط القبلى — الأخلاق الحقّة
هى الطريق إلى المشيخة •• الفخر والاعتزاز —
البدو المفرون — بنو هلال — القيادة أسفل
وادی الجزى

« فى تلك الصحراء المقفرة ، يسكن العرب الذين
يسمون بالبدو ، وهم أناس ذوو طبيعة ساخنة ،
ودماؤهم حارة ، وهم أقوياء يعشقون الحرب ،
وطبيعتهم حادة تتسم بسرعة الانفعال » •

« سيرجون مانديفيل »

كان الهدف التالى لنا فى البحث هو صفوان ، بأطلالها فى الشمال
الغربى من البريمى على حافة الصحراء ، وكان الشيخ عبد الله مرشدنا
ودليلنا ييذل قصارى جهده ، وقد ذكرت له ، أن هذه البقايا التى نراها
تعود الى مائة وخمسين عاما مضت •

ولقد كان المنظر جميلا بحق هنا ، وكان منظرا لا يمكن نسيانه
بسهولة ، ذلك المنظر بكثبان الرملية الرائعة ، والتى شكلتها الرمال
البديعة ، فصنعت لوحة فنية رائعة •

ثم أقام الشيخ خيمته الخاصة لنا ، ووضع أربعة من رجاله لخدمتنا

وحرصنا بالليل ، وهناك نوعان من البدو « رحالة الصحراء » في عمان •• المشواوى الذين يسكنون بالقرب من الجبال مثل أولاد العوامر ، أما البدو الحقيقيون فهم اللذين يعيشون في الصحراء برمالها ، أو بالقرب من رمال الصحراء ، مثل الوهابيين ، وقد سمي البدو بذلك الاسم ، وحسب تفسير العرب ، فان ذلك الاسم يعود الى « البادية » ويعتبر الشيخ عبد الله مثالا للبدوى الشجاع الكريم ، الذى يعرف النظام القبلى ، تمام المعرفة ، وقد ذكر فى معرض حديثه عن النظام القبلى : أن لكل قبيلة شيخا أو رئيسا يحترمه الجميع ، ولحق ، فقد أسرنى هذا الشيخ بابتسامته ولباقتة ، وتوسطه بين الشدة والتسامح •

وكلمة الشيخ تعنى الرجل العجوز المتقدم فى السن ، ولها معنى هنا يفوق مجرد المعنى اللفظى للكلمة ، فهى تعبر عن الكياسة والحكمة ووجوب الطاعة والاحترام ، وفى التنظيم القبلى يلعب الشيخ دورا عظيما ، ويتقابل بالولاء والطاعة ، فهو يحمل عقائد وأفكار قبيلته ، وقد ذكر « رافائيل باتى » أن سلطة شيخ القبيلة لا تقوم بناء على القوة ، ولكنها تقوم على السمعة والحكمة والمكانة التى يحظى بها •

وهنا نجد نذل فرد حريته واستقلاله ، ولكن هناك حلقة وصل تربطهم جميعا بعضهم لبعض ، وأنولاء والعون لفرد يعنى كذلك للجماعة ، ووحدة الأصل والتعاون والمصلحة العامة هى القانون ، وهى العرف لدى هؤلاء البدو •

« لا يمكن أن تقع حادثة لبدوى دون أن تهب كل القبيلة لنجدته » •

ولأن قرية مخططة ليست فى نطاق حكم والى البريمى فان الشيخ عبد الله يشغل وظيفة شيخ البلدة ، والوالى فى نفس الوقت ، وتتضم هذه

البلدة اثنتين وثلاثين قرية تحت سيطرته ، ويبلغ عدد سكانها خمسة آلاف بدوى من بنى سعد *

والجريمة داخل القبيلة لا تعنى جريمة بين جميع أفراد المجتمع ، ولكنها بين أسرة القاتل وبين القتيل فقط ، وقد يكون للجريمة قصاص ، أو دية ، حسب ما يريده أقارب القتيل *

ومعيشة البدو هنا • وبكل المعايير ، تعتبر مثالا لكيفية العلاقة التى تقوم على نظرية « البقاء للأصلح » وقدرة الانسان على تكيف حالاته مع الظروف السائدة هنا فى الصحراء وحيث الطبيعة القاسية ، وحيث الذين يولدون فى هذه الظروف القاسية ، والذين يعانون من المرض والسكن الرديء ، تلك المعيشة البدائية ، وعلى الانسان الذى يعيش هنا أن يتحمل كثيرا فى هذا المكان الموحش بين الذباب ، والعقارب ، والوحوش ، ورغم الجوع والعطش القاسى والحالة الاقتصادية السيئة التى تحيط به ، فانه يغزو كل ذلك ، ويقاوم قسوة الطبيعة ، وجهها لوجه ، ويشير الى نفسه بفخر واعتزاز ، وكأنه ليس هناك على الأرض من يساويه ، أو يصل اليه ، وهو راض عن حالته هذه ، ويشعر أن الدماء تجرى فى عروقه هى الأفضل ، وهو يفصل الجنة عن كل ممالك الأرض ، التى تبدو فى نظره صغيرة للغاية ، وبلا معنى ، أو فلتقل بلا وجود حقيقى ، فهى فى نظره أوهام الحياة الدنيا ، وتدور كل أفكاره حول الله ، الذى يمنحه التفكير ، ويشعر أنه بدون الله سبحانه وتعالى لن يتمكن من التفكير أو الحديث ، أو عمل أى شئ ، وهذا الكفاح الذى لا ينتهى أو يضعف فى بيئته الشاقة حيث المرض والعراء بلا ماء قد جعلت العربى قويا وشجاعا لا يكل ولا يتعب *

وحياة البدو ترتبط — وبدرجة قوية بالشرف والكرامة ، فهما تاجه

الذى لا يستطيع الحياة أو السير بدونه ، أو بدون سمعته الحسنة ،
واذا حدث وخذش هذا الشرف ، أو تلك الكرامة ، فإن الموت هو
الحل أمامه •

والجريمة السوداء عند البدوى هى خيانة الصديق ، فالبدوى
يضحى فى سبيله بنفسه ، ويقسو على أعدائه بلا هوادة أو رحمة ،
والبدوى يحب القوة والاحترام • ويرفض أى علامة من علامات الضعف ،
وكما قال « هيرودوت » ان العرب يحفظون العهد أكثر من أى انسان
آخر •

وقد وجدنا أن العرب مخلصون ، مفكرون ، يتعاونون ، ويحفظون
الصدقة ، ويتميزون بقوة شخصيتهم فى التعامل وفهم الآخرين ، والبدوى
ليس مهملاً ، وليس أيضاً ساذجاً ، كما يوحي مظهره عند النظر اليه
للوهلة الأولى ، ولكنه ، وبطريقته الخاصة ، ينتصر على كل الصعاب
والمشاكل التى تواجهه ، وللعربى عقل ذكى نابه ، والعمليات العقلية التى
يقوم بها بسيطة ومباشرة تمده بالاستنتاج الراسخ • وهو ذو نظرة
منطقية للأمور وقليل من الرومانسية ، وعندما يتعامل مع انسان غريب
لأول مرة تجده يتخذ الكذب شعاراً لمعرفة حقيقة هذا الغريب ، فالعربى
من طبعه الشك ، والبدوى بطل كذلك فى اتصالاته وعلاقاته الاجتماعية ،
وهو واثق بنفسه ، راض دائماً وقنوع بما هو عليه ، يصمم دائماً على
الطريق الذى يسير فيه ، ورغم أن الحرية الانسانية نسبية فى كل
المجتمعات الا أنه لا يوجد من هو أكثر حرية من العربى فى الصحراء ،
أما المفتاح الخاص الذى يستخدمه للتغلب على الصعاب الطبيعية وعدم
تقييد الحرية فهو عدم الراحة ، والنشاط المستمد المتزايد •

وقد يأتى من الأحداث والمواقف التى تثير أعصاب البدو الى

حس ما ، وربما تحتتم عليهم الظروف ارتكاب جريمة ، ولكن العدوان والاثم ليسا من سجايا البدوى ، فهو يشعر بالندم وعذاب الضمير بعد ذلك ، والبدوى هو أب للصحراء وليس ابنا لها *

ويحتبر غياب وجود حكومة مركزية هو المسئول الأول عن عدم توافر مشروعات تنمية جماعية واجتماعية في هذه المناطق ، وأؤكد أنه لو توافرت هذه المشروعات الخاصة بالتنمية لشهدت الصحراء مزيدا من التقدم والازدهار *

وعند الظهر تركنا منزل الشيخ عبد الله ، عبر وادى الجزى ، وسرنا فى الطريق الى صحار ، وعلى كلا الجانبين كما نرى تكوينات من الأحجار الجيرية ، وتعرف هذه المنطقة باسم « مجان » ، وتحتوى هذه المنطقة على النيكل والنفاس ، ثم وصلنا الى جبل كامور ، وشاهدنا فى اليسار جبلا منعزلا ، على رأسه برج مراقبة ، ويرفرف عليه علم السلطان ، وعلى اليمين يوجد أحد مكاتب جيش السلطان ، ثم مساحات واسعة من الواحات الخضراء الجميلة ، وأشجار النخيل ، وأشجار الفواكه الكثيرة ، ثم على البعد حصن قديم والكثير من الأطلال ، ثم أحد الأفلاج ، وقد جذبنى للغاية هذا النظام البديع للمرى *

وفى الطريق أمضينا ليلة باردة فى الصحراء ، ولكننا لم نشعر بقسوة البرد ، فقد كنا سعداء للغاية ، وبعد فترة ليست طويلة من التجول فى الصباح وصلنا المقابر المنتشرة على أطراف صحار ، بعد رحلة رائعة بديعة *

الفصل التاسع

البحث والتنقيب في صحار — ليست هناك مدينة

قديمة — القراء ٠٠ بحيرة دربات — القبائل الأربع

في القراء — الأحوال والظروف السائدة

في فترة غيابنا ، كان « رى » يحتفظ بفريق البحث والتنقيب في صحار وقد ودعنا ساندى في نفس اليوم في الشارقة ، حيث أقام فتحة كبيرة في تل رئيسى هناك ، بمربع يبلغ عمقه خمس عشر قدما جنوبى المدينة ، وكان التل يقع مباشرة بمواجهة مكتب الجمارك المجاور للبحر ، والذي اتخذنا فيه مقرا للرحلة الاستكشافية ، وكانت هذه الحفرة على بعد مائة وخمسين ياردة من البوابة الغربية لسور المدينة ، التى انهارت بأكملها ، مخلفة وراءها ملامح الفن المعمارى الذى كانت عليه * ولم نعثر على أى نوع من المباني في المستويات السفلى للحفر ، وكانت هناك بعض قوالب من الطوب تدل على وجود صناعة للطوب ، على قرب من هذا المكان ، ولكنها لم تمتد لبقية المنطقة *

وقررنا أن نقسم المجموعة الى فريقين ، فريق يبدأ من الفجر وحتى المساء ، على أن يكمل الفريق الآخر بقية اليوم ، وقد كانت هذه الحفر التى قمنا بها بجوار الأجزاء العلوية في أعلى جزء من التل الرئيسى ، ويعود الطوب المستخدم هنا الى القرن السابع الميلادى ، ووجدنا كذلك قدامتين من قطع القيشانى الأوربية ، وكذلك وجدنا بعض الحفريات لتاريخ القرن الثامن الميلادى ، ووجدنا كذلك الكثير من التحف التى تدل على الابداع في فن الزخرفة ، وأيضا وجدنا تكوينات من الطوب ، وقوارب

صغيرة كانت تستخدم قديما في نقله ، وقد تم العثور على أنواع كثيرة من هذه القوارب في الشرق ، والتي يبدو أنها كانت تأتي من بعلبك •

المهم أنه ليس هناك أى أثر لمدينة قديمة ، وحتى لو وجدت آثار مدينة قديمة ، فإن عوامل البحر وزحفه الى الشاطئ ربما يكون قد قضى على آثارها أو محاتك الآثار •

وتؤكد الأبحاث الجيولوجية أن الرخاء والازدهار التجارى في صحار لم يرد ذكره الا في المصادر الأدبية أو القصصية وليست المصادر الجيولوجية •

ويعود النظام البديع الخاص بالأفلاج ، والقنوات هنا الى القرن العاشر الميلادى ، ويمكن القول بأن مباني ومنازل صحار التي فرقناها من البقايا الخاصة بصحار لم تكن تبلغ من الروعة والعظمة ما كانت عليه بغداد مثلا بعد الاسلام ، ويمكننا القول كذلك ، أن صحار لم تستطع الاستفادة من الحضارات والثقافات التي كانت تحيط بها وراء الصحراء والبحر •

ثم نعود الى رحلتنا :

وصل الشيخ صقر من مسقط ، وهو يحمل تعليمات من السلطان الى الشيخ عبد الله ، تقتضى سفره هو والشيخ صقر الى البريمى معا ، وبالفعل ودعنا صحار في يوم الجمعة ٣١ من يناير عام ١٩٥٨ ، وعندما وصلنا وجدنا حجرة رسمية معدة للاستقبال ، وقد تم اعدادها خصيصا لنا ، وكان الاستقبال حارا ، وطلبنا من جلالة السلطان أن يسمح لنا بتصوير فيلم في القصر ، وتكرم جلالته بالسماح لبيل بالنقاط بعض الصور لجلالته •

وفي اليوم التالي ، حضر طالب وعبد الكريم لتوديعي ، ولطالب وعبد الكريم قصص وذكريات معي ، ولكن المقام لا يتسع لذكرها •

وفي المساء جلست مع جلالة السلطان ، وقد سره كثيرا ما سمعه عن تفاصيل رحلتي مع الأطلال في صحار ، وأيد طلبى بخصوص الحفر في ظفار ، وأن يكون برئاسة جاما ، خلال فترة عودتي الى نيويورك ، ثم حدثنا جلالة السلطان حديثا عظيما ، ومن القلب ، دار حول توقعاته لمستقبل عمان ، ثم تحدث بصراحة منقطعة النخيل ، وقال : إن الأخطاء وجوانب القصور والضعف الحاضرة ليست خطأه ، ولكنها أخطاء موروثه ، وأنه يبذل قصارى جهده لتغييرها تدريجيا ، فهو يتمتع بأفكار تقدمية ، ولكن لا يمكنه أن يطبق هذه الأفكار بسرعة ، لأنه بذلك ينفصل عن شعبه •

ثم قمنا بعد ذلك بزيارة منطقة القراء ، وكان سكانها بمثابة لغز من العصور القديمة •

وقد عرف كتاب اليونان والرومان الذين كانوا يجهلون أجزاء كثيرة من الجزيرة ، ومن خلال اتصالهم بسورية وفلسطين ، أن هناك مساحة كبيرة من الصحراء العارية في تلك المنطقة ، وقد عرفوا من المسافرين أن الجزيرة ليست كلها كذلك ، ولذلك فقد سموا الجزيرة « بالجزيرة السعيدة » و « الجزيرة الصحراوية » ولكن الرومان واليونان لا يعرفون مثلما نعرف نحن الآن عن هذه المنطقة ، حيث الأشجار العالية ، والنخيل ، والأطلال والمدن القديمة ، والفنون التي كانت هناك ، لقد فهمنا ظفار التي لا يعرفونها ، والتي اذا ما قورنت ببقية الجزيرة تعتبر جنة بأشجارها وعيون المساء فيها ، وكذلك ببحيراتها وشلالاتها ، والجبال التي تكسوها النباتات والأحراش ، وهناك تناقض كبير بين قارة آسيا ككل ، وبين ظفار التي تبلغ مساحتها حوالي ثمانية وثلاثين ألف ميل مربع ، وهي تقع في

جنوب مسقط بخط ساحلى يمتد مائتى ميل ، بين الأرض المعروفة باسم رأس دربات ، ورأس منجى ، والحدود الشرقية لظفار تمتد للسواحل من رأس منجى ، ولمسافة مائة وسبعين ميلا الى شمال رملة مغشئ • وفى الشمال تمتد عبر الرمال لمسافة مائتى ميل • وتمتد الحدود من الجنوب خلال وادى شعيت وميتان •• الخ ، ومن هناك حتى جبل صدافة فى وادى حبروت جنوبا الى « رأس دربات » على الساحل •

وترتفع جبال القراء رأسيا الى الشمال ، وتطل على السهل الساحلى الى ارتفاع أقصاه حوالى عشرة أميال ، وتنتشر هنا وهناك مجار مائية ، وكذلك بعض النباتات التى تغطى الجبال فى مناطق متفرقة ، وكذلك بعض الكهوف ، وهناك أيضا قطعان الماشية ، وفى الجانب الغربى من وادى نهاز ، قمت ذات مرة بزيارة لكهف شحور ، الذى يحتوى على تماثيل على شكل طيور ، وكذلك على عظام ، واذا كانت المعتقدات المحلية صادقة فإن الجن تسكن ذلك الكهف ، وإن كان من الخطورة بمكان ، ومن غير الحكمة ، أن نصدق مثل هذه الروايات ، التى تمنعنا من الاتجاه أو التقدم نحو أى مكان نريد البحث أو التنقيب فيه •

ويسمى سكان منطقة ظفار أنفسهم بالجبالى أو الجباليين ، ويطلقون على أنفسهم القراء ، أما قبيلة القراء فهى مقسمة الى حوالى خمس عشرة قبيلة ، فرعية ، وتنقسم كذلك كل قبيلة فرعية داخل نفسها حسب رابطة الدم ، وهم يعيشون اليوم فى منازل من الطين •

ومن عادات الناس هنا ملاقاته بعضهم البعض بالقبلات وتشابك الأيدي ، وبعضهم يحمل السيوف ، ولرجل القراء قوة تحمل كبيرة ، وكذلك يتميز ببنيان جسدى قوى ، وهم عادة حليقو الذقون بلا لحية •

أما النساء هنا فهن صغيرات يتميزون بجاذبية محببة ، وهن غير محجيات على عكس نساء البدو وجميعهن ، وأحياناً ، وفي حالات معينة تتزين المرأة هنا باستخدام الألوان المختلفة في تجميل وجوههن ، ويتزوج الأبناء هنا عادة في سن الخامسة عشر ، أما الزواج والطلاق فهو سهل للغاية في القراء •

الفصل العاشر

الجزيرة العربية وغناها بالتوابل — أشجار اللبان — أشجار

المر — سد مأرب — أطلال جنوب ظفار القديمة وواحاتها

ترتبط رفاهية ظفار على مر العصور بلبانها الرائع ، الذى كان يمثل عمود التجارة الأساسى فى كل جنوب شبه الجزيرة العربية قديما ، وهناك اتحاد خاص من العوامل الجغرافية والمناخية ، منذ العصور القديمة ، قد ميز منطقة نجد ، التى تقع شمال جبال القراء مباشرة ، وهذه العوامل هى مصدر تلك العصور الأسطورية التى انتقلت عبر الجنوب الغربى ، وشمالا عبر البحر الأحمر ، الى المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، وقد خلقت نوعا من الازدهار للمدن الواقعة على الطريق والمدن الرئيسية فى شبهه ومأرب .

ويعود أصل كل الأنواع الجيدة من اللبان والتوابل الى ظفار ، حيث كان يتم شحن بعضه على مراكب شراعية ، والباقى تحمله القوافل عبر وادى ميثان ووادى « فسد » حيث يمر الطريق بالربع الخالى ، ورغم أنه حتى الآن لم يعرف تاريخ الاستخدام الأول للبخور ، إلا أن تجارته كانت مزدهرة للغاية ، وكان البخور من أغلى السلع التجارية .

وقد كتب الكثيرون من الرحالة والمستكشفين كثيرا عن بلاد البخور ، وعن ظفار بصفة خاصة ، عندما سلطت عليها الأضواء ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، ورغم أن « نبات المر » ينمو فى غرب الجزيرة العربية مع بعض أنواع التوابل والبخور إلا أن ظفار تعتبر هى الأولى ، من حيث انتاج التوابل .

وتشرف قبيلة « بيت كثير » على انتاج البخور في ظفار ، حيث تتولى كل أسرة العناية بأشجار البخور الخاصة بها ، وهناك كذلك أشجار اللبان الذكر الذى يترك حتى يصفر لونه • وفى منطقة ظفار ، وكذلك فى جبال القراء ، ينمو المر على الرغم من أن بعض التقارير قد ذكرت عدم وجوده هناك •

ومن أبرز الأطلال والآثار القديمة فى ظفار تلك المنطقة الساحلية التى تقع شرق صلالة ، والمسماة الآن بالبلد ، والتى تعنى بالنسبة للسكان المحليين ، المدينة ، وهذا الاسم « البلد أو المدينة » يعنى كبر حجمها وأهميتها ، وأنها أول مدينة يطرقها الجيولوجيون فى ظفار •

وقد كان أملنا كبيرا فى أن نجد آثار الحضارة العظيمة لجنوب الجزيرة العربية • ولكن فى « البلد » كانت الآثار قديمة جدا ، بالدرجة التى لا تمكننا من العثور على ما نريد ، وعلى الحدود الشمالية لجبال القراء تقع منطقة حنون على بعد ستة وثلاثين ميلا ، شمال صلالة ، على طريق جبلى وعر • وهذا المكان معروف جدا لدى البدو ، حيث إنه فى أعماق ذلك الوادى حوض مياه ، وهذا الحوض يعنى الحياة ، بدلا من الموت ، بالنسبة لراكب الجمل ويقول السكان المحليون : إن الحوض يشبه الكوب العملاق الموضوع فى الأحجار الجيرية الصلبة ، والذى يمكن أن يحفظ الماء لمدة اثنى عشر عاما ، ويبلغ قطره حوالى عشرين قدما ، أما عمقه فيصل الى ثلاثين قدما ، وربما كانت البئر أو الحوض هذا يتغذى من باطن الأرض ، ويظل مليئا بالماء ، رغم عدم سقوط الأمطار فى بعض الأحيان •

وقد أدرجنا آثار حنون فى بحثنا عندما رأينا نقوشا ورسوما أثرية

هناك ، وبعدها انتهينا من حنون وبدأ الحفر في سمهورام بعد أن قمنا بنقل المعدات الى خور رورى وأقمنا المعسكر •

وأول شيء عثرنا عليه ، هو رأس قمة عالية من جبل لم نر مثله • وهناك تكوينات من الطوب تدل على وجود تحصينات دفاعية قديمة ، كانت تستخدم للدفاع عن المدينة ، وهناك كذلك برج مرتفع في الشرق خارج أسوار المدينة ، على بعد ست أقدام منها ، يقف عليه المحاربون باعتباره موقعا هاما للسيطرة وإنزال الهزيمة بالأعداء • وكان أهم ما في حملتنا هو العمل داخل هذه المنطقة الواقعة شمال سور المدينة ، حيث يجد الجيولوجى آثارا لمبان قديمة عظيمة ، وفي أعالي الصخور توجد قطع من البرونز الذى تم اكتشافه حديثا بالمنطقة •

ومن أهم المناطق التى حيرت اهتمام المستكشفين في ظفار تلك الواحات التى تبعد بمسافة سبعة وخمسين ميلا شمال شرق صلالة ، في وادى النظور المتسع على الحافة الجنوبية لنجد • وتسكن وادى نظور هذا قبيلة البطاهرة ، وقد وجدنا في هذه الواحات كذلك بعض الآثار القديمة •

ومن موقعنا هذا وخلال ساعة تقريبا وصلنا الى تكوينات مدهشة تشير الى وجود أنواع من الزراعة قديما • كما وجدنا هنا اثنتى عشر من مجموعة من أكوام الصخور ، وقد كانت وبالتأكيد مدافن تقع على الطريق المستقيم الذى يجرى شمالا وجنوبا ، كما يوجد هنا خط مستقيم بموازاة الغرب ، يتكون من مناطق حارة جدا ، وكانت هناك نقوش على بعض الأحجار ، ولكنها كانت غامضة وغريبة •

وبعد عشرين دقيقة لهثت فيها أنفاسنا وصلنا الى أطلال ماسونية وأسوار على قمة هضبة مستديرة ، يبلغ قطرها حوالى خمسين ياردة ،

وهناك سور دفاعى فى الجزء الشمالى ، وأفضل تفسير لهذه الأطلال هو أنه كان يوجد هناك حصن للحراسة والسيطرة على مزارع اللبان الذكر ، وأنها كانت منطقة هامة لإنتاج البخور ، وعلى أية حال فإن واحات نظور كانت محطة هامة للراحة على طريق القوافل المارة فى الطريق الى الخليج فى الشمال ، وإلى حضرموت فى الغرب ، وكان على ممالك حضرموت أن تحصن واحات نظور ، للسيطرة على تجارة البخور واللبان ، وهكذا كان الهدف من إقامة هذا الحصن .

وقد كانت حنون وخور رورى ونظور هى المواقع الوحيدة فى ظفار كلها ، التى يمكن القول ، بأنها تعود الى عصور ما بعد الاسلام .

الفصل الحارث عشر

زنوج ظفار — ملكية الأرض — البحث في أطلال حاسك —
الربع الخالي — الرمال — سور كاشف — بيت كثير —
البحث عن إبر في سبأ

كانت السمة الأساسية لأي نظام حكم في الجزيرة العربية في الماضي هي عدم الثبات والاستقرار ، واليوم تتمتع ظفار بالأمن والرخاء ، ويعيش سكانها عيشة رغدة ، لا يخافون شيئاً ، ويبدو — في الحال — عند الوصول إليها أنها هي البلدة الوحيدة التي ينظر إليها السلطان بعين الاعتبار ، وقد كان مجلس الوزراء الذي تم تشكيله عام ١٩٢١ بأمر جلالة السلطان تيمور مسئولاً عن كل المحافظات في عمان ، والاشراف على جميع الولاية ، عدا ظفار ، التي كان واليها مسئولاً مباشرة أمام السلطان ، وليس تحت إشراف مجلس الوزراء ، وتعتبر العاصمة صلالة جميلة نسبياً عن بقية المحافظات ، بشوارعها الواسعة أكثر من كل المدن العربية ، وتضم قصر السلطان ، وتوجد مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث ، ومستشفى بمعدات حديثة ، ويمكن أن نرى صلالة على خريطة شركة أرامكو ، كما يمكن القول بأن المجتمع المطل على شاطئ البحر ، والذي يضم القصر ، والمدرسة ، والمستشفى مكان منفصل ، يطلق عليه اسم الحصن .

ثم وصلنا الى المعمورة بعد خمس وعشرين دقيقة ، حيث الخدائق الجميلة وسط أشجار النخيل ، كما تنتشر هنا أشجار جوز الهند .

وهناك أربعمائة شجرة لبان مزدهرة ، وهى الأشجار التى أمر بغرسها
جلالة السلطان ، وهنا ، وفى هذا المكان ، يوجد حمام كبير للسباحة
وماء عذب ، ويأتى هذا الماء من عين كبيرة فى وادى رزات ، ويقدر
هذا الماء بأربعمائة ألف جالون ، وهنا تنقسم الأراضى الزراعية الى ثلاثة
أنظمة يعترف بها :

١ — ملكية خاصة •

٢ — إيجار طويل المدى من الدولة •

٣ — إيجار قصير المدى لانتاج محاصيل سنوية للدولة •

والمزارع هنا تتكون مساحاتها من خمسة الى عشرة أفدنة ، والرى
هنا يعرف بنظام الآبار ، وذات صباح بينما كنت أجلس مع جلالة السلطان
فى القصر حدثنى جلالته عن أطلال حاسك ، والتى تقع فى الجانب الغربى
من جزر كوريا موريا •

وقد كان لحديث السلطان أثر شديد فى نفسى ، أثار رغبتى فى
الاستكشاف ، والبحث فى تلك المنطقة ، وبعد أسبوع أبحرت من مرياط
فى الشرق باتجاه السهل الساحلى ، وكانت هذه هى رحلة السلطان حقا ،
فقد أمدنا بكل شئ من طعام وماء ، بالإضافة للقارب الذى زودنا به ،
وهو قاربه الشخصى ، ومجموعة من الأسلحة ، والعملات الفضية التى
ربما نحتاج فى الطريق ، وكان معنا ابن والى ظفار ، الذى كان راغبا
رغبة شديدة فى أن يتعلم الانجليزية ، وقد كنت فى هذه المرحلة فى بداية
معرفتى باللغة العربية وحاولت تحسيسين لهجتى عن طريق تعليمه
والتحدث معه •

ويمر هذا الساحل المجهول من صلالة في الشرق الى « صور » على امتداد خمسمائة ميل ، وكنا نحصل على حاجتنا من المؤن التي نحتاج اليها من القوارب المارة •

وتعتبر جزيرة محوت في خليج مصيرة هي المحطة التجارية الهامة على الساحل ، والثانية بعد صور خلال فترة ازدهارها ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكانت الصادرات الوحيدة هي التمر والأصداف •

ووصلنا الى قرية سدح التي تشتهر بالصيد ، ولها ميناء جيد تحده جبال الجرانيت ، وبعد الاستقبال الرسمي الكريم سمحوا لنا بالبقاء حتى الثانية صباحا بهذا الميناء • وهذا ميعاد مناسب للوصول الى حاسك في وسط النهار من اليوم التالي اذا سارت الأمور على ما يرام •

وفي حاسك كانت المباني مشيدة على جانب الجبل بمواجهة البحر ، وهناك الجبال الأخرى المظلمة ، والتي لو جاءها أعداء من البحر لغزوها لفقدوا أثرها ، وهناك كتلة من الصخر الصلب على ارتفاع أربعة آلاف قدم ، وتضم الأطلال الممتدة « بلا أسوار » منازل صغيرة وعديدة ، ليست مبنية من الحجر الجيري ، وليس عليها أغطية وقائية من الرمال ، وبعد توزيع الرجال لجمع عينات الصخور ، قمت بعمل ثلاثة عمليات تنقيب في ثلاثة أماكن •

وتعتبر حاسك إحدى الأماكن القديمة لمقبرة النبي هود عليه السلام ، ورغم أن بطليموس ذكر ذلك ، إلا أن هذا كان غريبا بالنسبة لي ، لأنى لم أجد أية أدلة ، وقد ذكر « البكرى » المتوفى عام ١٠٩٤ ميلادية حاسك كحدود غربية لعمان ، بينما كتب الادريسي ، في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، واصفا هذا المكان نقلا عما كتبه الرحالة والمسافرون بقوله أن

المدينة الآن شبه خرائب ♦♦ تسمى « سوق حاسك » ويسكنها قبائل القراء
وقبائل أخرى من دولة اللبان ♦

وبعد ذلك تحدث عنها ابن بطوطة قائلا : إن الناس يقيمون المنازل
هنا من عظام الأسماك ويغطونها بجلود الجمال ♦

وقال « س ♦ ب — هانز » إن الناس هنا يعيشون على الأسماك
فقط ♦ ووجدنا بين الأطلال مقابر إسلامية حديثة ، لا يتعدى تاريخها
مائتى عام ، ولم يكن لدى الطاقة اللازمة لفحص التحصينات الصخرية
في الجبل المطل على المدينة ، ولكن بمعاونة الصيادين قمت بذلك ، ووجدت
أطلال مبان وأشجار تمر ، وسنط ♦

والدنيا لدى الكثير من الجغرافيين العرب هي عبارة عن كرة تطفو
فوق سطح البحر ، نصفها تحت الماء والباقي خارجه ، وهناك منطقتان ،
إحداهما ♦ مسكونة والأخرى مهجورة ، وإذا كان هذا صحيحا فإن هذه
المنطقة المعزولة تعد من المناطق الصحراوية عديمة الحياة ♦

وفي جنوب ووسط الجزيرة يوجد هناك الربع الخالى ، برماله الناعمة ،
التي لا يمكن السير فيها ، وهى رمال الموت ، والتي تحدث تقريبا مساحة
خمس وعشرين ميلا مربعا ، في جنوب وسط جزيرة العرب ، يحدّها من
الشرق جبال عمان ، ومن الجنوب جبال القراء وحضرموت ، ومن الغرب
جبال اليمن والحجاز ، وشمالا الأجزاء الصخرية الممتدة على حدود
المملكة العربية السعودية ، وهناك نظام بديع للرى والصرف من خلال
الجبال العالية ، وهناك أودية فسيحة كثيرة في الربع الخالى ، ذات كتل
كبيرة من الرمال ♦

ورغم أن سقوط المطر نادر هنا فإن هناك الكثبان الرملية ، ولها نظام خاص يخضع لاتجاهات وقوة وتتنوع الرياح المحلية ، والجافة الجنوبية من المنطقة الرملية تمثلها مجموعة كبيرة من الكثبان الرملية ، متنوعة الأشكال ، وهي التي تجاور الصخور الضخمة ولا تتأثر بها ، وعلى البعد من ذلك شمالا توجد كثبان رملية أكبر حجما ، وتنحدر ناحية الشمال ، والشمال الشرقي ، وتحمل الرياح القادمة من الجنوب رمال الأودية ، وتلقى بها بالقرب من الريف ، وبسبب الرياح العاتية التي تهب على هذه المناطق فقد ترحزحت الرمال الى الأجزاء الصخرية الحادة ، وكونت مناطق تعرف بالشقين ، ومصدر هذه ليس معروفا ، ولكن يعتقد أنها تأتي من وراء الخليج ، وهناك منطقة الربع الخالي الحافلة بالرمال ، واصطلاح الربع الخالي هذا معروف جيدا لدى الأجانب ، وقد تحدث عن هذه المنطقة كثيرون من المستكشفين مما يدل على مدى شهرتها لدى الأجانب ، ومن الصعب تحديد حدود الربع الخالي حيث الرمال الشاسعة وانعدام الماء ، ونقص المعالم تقريبا ، وحياة الرحالة في الربع الخالي غير مستقرة ، وغير سعيدة بسبب الغارات ، والمياه التي تسبب الخلافات بسبب قلتها ، وكذلك بسبب الحالة التي يعانيها البدو في ترحالهم مع نسائهم وأطفالهم .

و ذات مساء أعددت عدة لعمل محاولة لاختراق المنطقة الشمالية من الربع الخالي ، والتي كنت قد بدأتها من قبل على ساحل ظفار ، وقد كان لي هدفان :

الأول : أن أحدد بوضوح عين الماء في خفصة التي زارها « ويلفريد » على ظهر الجبال عام ١٩٤٥ .

ثانيا : البحث عن المدينة المفقودة أبر .

وتخان رفاقى فى الرحلة الشيخ حميد بن حامد والى ظفار ، وأيضا رفاقى الجيولوجيون ، وفى نحو الشمال مرورا بالأودية العلوية لجبال القراء فحصنا بعض التكوينات الصخرية ، وفى النقطة النهائية قبل الدخول فى الرمال الشاسعة نتقح منطقة دوخة فوق مئات الأميال من الساحل ، ثم عبرنا وادى بين خاطر ، وسرنا عبر الجانب الشرقى من الوادى الى أم الحياة ذما يسميها البدو ، ثم أقمنا معسكرا فى وادى أريفى ، حيث أشجار المسند ، وعائلات البدو الفقيرة والحيرانات والجماد ، التى تتغذى على النباتات البرية ، والبدو يقيدون حياتهم فى نطاق الجبال والبنادق والثار ، ثم سرنا شمال الوادى ، وهناك فى منطقة قريبة أمضينا ليلة سعيدة ، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث مع الوالى ، والذى يبلغ من العمر أربعة وستين عاما ، وهو رفيق صدوق من قبيلة بنى غافر ♦

وفى الصباح كان طريقنا من الشمال للشمال الشرقى ، ثم دخلنا بعد ذلك فى رمال متواصلة ، ثم حدد الشيخ الطريق قائلا ، إننا فى خفصه ، على مسافة سبعين ميلا للداخل من الربع الخالى ، وقد كانت المنطقة المجاورة تقريبا من أحجار الكربونات ، وكانت عارية تماما وعديمة النبات إلا من بعض الأشجار التى تنمو على الكثبان الرملية القريبة ، وتقع عين الماء داخل الكثبان الرملية تقريبا ، وللماء فى هذه المنطقة اعتبار خاص بدرجة قصوى ، وفى الجزء الجنوبى من الربع الخالى والمسمى بخفصه يقال إن عين الماء قد حفرت عن طريق شهاب سقط وحفرها ، وليس من عمل النبى آدم عليه السلام ، وهذا الموضوع يمكن تفسيره ♦

ثم قمنا برحلة بطائرتنا « الداكوتا » لاستكشاف المنطقة ، وكنا على اتصال دائم بصلالة باللاسلكى ، حيث كان من الصعب تحديد منطقة خفصة بسهولة ودقة عن الخريطة ♦

وفي النهاية حددناها بـ ٨٩ ميلا شمال دورة و ٤٥ ميلا في الشمال الغربي من مغشن ، على مسافة مائتين ميلا من صلالة على الساحل • وكانت خفصة في الكتبان الرملية ، ويسكنها بعض من قبيلة كثير ، يرعون اغنامهم ، ويحملون بنادقهم على اكتافهم ، وقد يكفيهم ماء الأمطار — الذي يسقط لمدة ثلاثة ساعات في السنة وللعشيب هناك أهمية كبيرة لهؤلاء الناس ، فهو الغذاء الوحيد لجمالهم ، وكما روى عن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنه قال ما معناه إن صحة الجبل من صحة صاحبه •

ومن عادات « بيت كثير » تفضيل إناث الجمال في رحلاتهم الطويلة والحكمة العربية القائلة « إن الله خلق البدوى للجمال وخلق الجمل للبدوى » حقيقة ، ويمكن ملاحظتها بدقة ووضوح في قبيلة « بيت كثير » والبدوى هنا يعتبر أن الجمل هبة من الله ، وهو قد يفضل على أسرته ، ومن عاداتهم أيضا أنهم لا يتزوجون في شهر صفر ، ويقدم نصف المهر للأب ، والنصف الآخر يقسم بين إخوة العروس ، ويقوم الأب بالانفاق والاعداد للزفاف •

وودعنا الوالى في دورة ، وعاد الى صلالة كى يقدم للسلطان تقريره ، وبعد راحة قصيرة ، قمنا بإعداد الفريق للبحث عن أبر « المدينة المفقودة » •

وكما تحكى القصة الأسطورية عن أبر ، أنها كانت مدينة مليئة بالقلاع ومليئة بالأغنياء ، وكان بها حصن من الفضة ملئ بالعملات ، وكانت المدينة تقع وسط الواحات الغنية في المنطقة المعروفة الآن باسم الربع الخالى • وينتمى سكانها الى قبيلة « عاد » وكانت هذه الواحات تسمى بجبات « عاد » حتى أنزل الله غضبه عليهم للخطايا الكثيرة التى كانوا يقترفونها •

ولم تكن هذه هى المحاولة الأولى التى أقيم بها للبحث عن المدينة المجهولة ، ولخنى قمت بمحاولة سابقة فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٣ بدأتها من شيزور ، وهو المكان الوحيد الذى بالماء فى تلك المنطقة ، وتختفى هذه العين وراء الأكوام الجيرية والصخرية التى تراكت عليها ، وحتى عندما صعدنا فوق هذه الأكوام كان من الصعب علينا أن نرى الماء ، ثم رحلنا بعد ذلك ، وقد أسرعنا عند رحيلنا بسبب العواصف الرملية التى هبت علينا ، ثم دخلنا ثانية فى المناطق الرملية العميقة ، وللحق ، فإننى أقول ، إنه من الصعب جدا القيام برحلة استكشافية جيولوجية فى تلك المناطق بالسيارة ، أو بالطائرة ، بسبب الرمال الناعمة العميقة التى تغطى الأرض ، والعواصف الرملية التى يمكن أن تسبب الكوارث . أما الحقيقة التى خرجت بها فهى ، أن الجمل يعتبر هو الوسيلة الوحيدة بالنسبة للإنسان فى هذه المناطق وعليها يعتمد فى حياته .

وفى الطريق أوقفنا مجموعة من « بيت كثير » لنستفسر منهم عما إذا كانوا يعرفون مدينة أبر ، فصاح أحدهم فى أذنى « الشيطان هو الذى يعرف » وحدثنى مرشدى الشيخ مسلم عن الأطلال هنا ، وذكر أنه رافق من قبل الجيولوجى الشهير « ثيسيجر » ولكنهم ضلوا الطريق هنا ، وصحراء العرب مفعمة بالقصص التى تتناول الذهب المدفون فيها ، ولكنها أضغاث أحلام .

وفى شمال الوادى رأينا الكثبان الرملية على كل الجوانب ، رأينا مجموعة من الجبال الصخرية من الكتل الرملية ، وجلسنا لنتناول الغداء ، ثم أخذنا نتجول فى الشرق والجنوب من هذه الكثبان الرملية ، وفجأة

صاح رفيقى الجيولوجى « شارلى » من « كاليفورنيا » هاهى ذى الآثار •
غير أنى أعتقد أنها آثار لقوافل كانت تمر من هذه المناطق الخالية منذ
زمن ، وبعد رحلة شاقة اتخذت قرارى بالعودة الى صلالة ، بعد أن
أنهيت رحلتى للبحث عن أبر •

وبهذا انتهت قصتى مع عمان وشعبها ، وهى قصة حافلة بالمغامرات
المتتالية : والتي تحتاج الى الكثير من الكتب لتسجيل أحداثها •

خاتمة

على أسوار البوابة الداخلية للمدينة القديمة سمهورام توجد نقوش كثيرة تشير الى ملك حضرموت ، ومدين ، وسبأ ، حيث كانت تشئون الحكم تدار منها •

وتقع سبأ شمال جبال القراء ، على حدود ظفار ، ولذلك فقد كان هناك دليل حقيقى يربط مدينتنا المفقودة سمهورام فى ظفار بسبأ عاصمة مملكة حضرموت القديمة • والتي تقع فى الغرب على بعد خمسمائة ميل • وقد كتبت عام ١٩٥٥ أن سبأ هى اللغز الذى يحاول كل مكتشف يأتى لجنوب الجزيرة العربية أن يحله ، حيث إن الرمال هناك تغطى التماثيل القصور والكنوز المدفونة ، والتي تجعلها من أهم البقاع •

وقد تحدث بلينى عن وجود ثلاث ممالك قديمة وهى ميثان ، وقطيان ، وسبأ كما ذكر « سترابو » الملكة الرابعة وهو سبوتا ، وقد كان هناك ملك واحد هو الذى يحكم كل هذه الممالك ، وكانت مدنا مزدهرة ، تزيئها تماثيل وقصور جميلة ، وكانت منازلها تشبه منازل مأرب •

وقد ذكر أحد المستكشفين الهولنديين عن حضرموت ما يأتى : « كانت سبأ مدينة هامة ، فقد كانت تضم قصر الملكة ، التى بدأت زيارتها منها الى الملك سليمان فى القدس ، ولهذا اكتسبت سبأ شهرتها ، ويمكن القول بأن هناك أنظمة للرى رفيعة المستوى عرفت فى تلك المنطقة » بسد مأرب • • بالاضافة الى موقعها الاستراتيجى ، كعاصمة لحضرموت • وكذلك تحدث عن أحواض الملح بها ، ثم سيطرتها على كل التجارة القادمة من غانا •

ثم كانت رحلتى التالية الى وادى حضرموت الذى ذكر عنه البروفيسور و . ف البريت فى حديث شخصى :

« إن وادى حضرموت هو المنطقة الأكثر جودة فى جنوب الجزيرة العربية كلها ، فهو أكثر اتساعا من أى واد آخر ، والماء فيه قريب من السطح أكثر من أى مكان آخر ، باستثناء بعض الواحات القليلة ، ولذلك كان من السهل على المقيمين فيه أن يزرعوا أجود المحاصيل فى التربة الطمودية الخصبة ، ولذا فمن المحتمل أن يكون هذا الجزء قد شغله السكان قبل أى جزء آخر . »

وعند ظهور الجمل فى الألف الثانية قبل الميلاد كانت هناك تجارة مزدهرة للغاية ، وأقدم عاصمة عرفناها هى سبأ ، وخاصة بالنسبة للنقوش والرسوم التى يعود تاريخها الى ما بعد الاستيطان فى الوادى .

وقد لاحظت عام ١٩٥٠ مدى اتساع الوادى ، وهو نادرا ، ما يشبه واديا آخر ، وعند دخولنا للحافة الشرقية من رملة سبأ وجدنا سهلا رمليا متسعا ، يمتد بالقرب من مأرب فى اليمن غربا لمسافة مائتى ميل الى بداية وادى حضرموت شرقا ، ومن تمنا فى ميهان شمالا الى النقطة القوية التى تنحدر باتجاه الربع الخالى ، والآن نعبر للمرة الثانية تلك الرمال الصعبة بسرعة خمسين ميلا فى الساعة . ثم وصلنا الى بعض الأطلال فى تلك المنطقة حيث توقفنا للبحث .

ويمكن القول بأن عمل الجيولوجى هنا من أصعب الأعمال ، فهناك من لا يتعاون معنا فى عملنا ولكن فى كل مكان كنا نذهب إليه كان هناك من يفهمنا ، ويفهم هدفنا من البحث ، والسير فى تلك المناطق المجهولة ، وكان هناك أيضا من لا يفهمنا ، وفى كثير من المناطق كان الشيوخ المصاحبون لنا يمنعوننى من دخولها ، ولكننى كنت أصر على الدخول لمعرفة خبايا

تلك المناطق ، وكانت البنادق تصوب في وجوهنا في مناطق كثيرة ، وتمضى ساعات في الاقتناع البطيء ومحاولة تصحيح الموقف ، ولكن في النهاية يمكن القول بأن العربى رغم شكه أول الأمر وعدم تصديقه لما نقول فإنه لا يصوب سلاحه الى مسالم أتى إليه بنفسه بغير ما نية في الأذى • وعندما يتأكد من غرضنا ينهال الكرم والتعاون ، ولكن ربما كان السبب في صعوبة التفاهم للوهلة الأولى هو طبيعة الحياة الشاقة القاسية للبدوى في الصحراء •

وعند عودتنا مارين بالمدينة تحرينا عن نقوش رائعة فوق أحد المساجد المحلية وعلمنا أن تلك النقوش تخص « يادا البين » ملك حضرموت ، وربما كان هو الملك الذى عاش في القرن الأول قبل الميلاد •

ثم قمنا بعد ذلك بزيارة الملاحات الشهيرة في سبأ التى تشابه ملاحات أبادين في بيجان وإن كانت أصغر حجما ، وهناك وجدت بعض العملات القديمة التى يرجع تاريخها الى حقبة بعيدة ، وفي طريق العودة مرت بخاطري تلك الذكريات الحافلة ، والأحداث التى امتلأت بها رحلتى الاستكشافية ، والتى يمكن أن تثير الطريق لأى جيولوجى متغامر يحاول القيام برحلة استكشافية لمنطقة الجزيرة العربية •

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : الجبل الأخضر ومسقط	٥
الفصل الثاني : الدين في عمان	٢٠
الفصل الثالث : صحار	٢٨
الفصل الرابع : مقابر المدينة	٤١
الفصل الخامس : إرادة الله	٤٨
الفصل السادس : عمال صحار	٦٠
الفصل السابع : أحوال العرب	٧٢
الفصل الثامن : الرمال الحمراء	٧٧
الفصل التاسع : البحث والتنقيب في صحار	٨٢
الفصل العاشر : الجزيرة السربية وغناها بالتوابل	٨٧
الفصل الحادي عشر : زنجوج ظفار	٩١
خاتمة	١٠٠

53

Bibliotheca Alexandrina



0248998